الحياة الطيّبة
السنة ١٨
العدد ٢٨
شتاء - ربيع ٢٠١٤ م
أبحاث ودراسات

البعد التثويريّ في أدب الأئمّة عليهم السلام - قراءة في الوظيفة التخليقيّة -

الدكتور عبد الفضيل ادراوي[1]

مقدّمة:

تُحرِّك هذه الدراسة غايات إنسانيّة دفينة، تروم التدليل على فَرضيّة منْطلق، تزعم إمكانيّة الحديث عن سمات من البعد التثويريّ في التراث العربيّ الإسلاميّ، اتّخذت تجلّيات عديدة من صور الإعداد التكامليّ للإنسان، يمكنها أن تعتمد لوصل الحاضر بالماضي، وربط الراهن الماثل أمام العيان بالغابر البائد؛ عبر إجالة النظر في نماذج إبداعية يزخر بها تراثنا العربي؛ شعره ونثره، ما يجعل البحث مشدوداً إلى التراث، ويتيح المزيد من فرص فهمه واستيعابه والانفتاح على كلّ مكوّناته وقضاياه، وضبط مختلف توجّهاته وتفرّعاته.

إنّ إعادة قراءة التراث الأدبيّ والفكريّ، ومعاودة التفكير فيه بشكل دائم وجديد، من مستلزمات تكوين فكرة دقيقة ومتجدّدة عنه وعن ملامحه وسماته. كما أنّه من دواعي تشكيل وعي جديد بذواتنا وهويّتنا ومستقبلنا[2]. وقد تكون عملية الفهم والاستيعاب مقدّمة لتأسيس

(١) أستاذ جامعي وباحث مهتمّ بالنقد والبلاغة وتحليل الخطاب، جامعة عبد الملك السعدي - تطوان - المغرب.
(٢) يقطين، سعيد: الكلام والخبر، مقدّمة للسرد العربي، ط١، لام، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧، ص١٥.

مشروعات جديدة لم يبلورها هذا التراث، أو لم تكن قد تهيّأت لها شروط التبلور بعد.

وعندما يشير أومبرتو إيكو إلى أنّ أهمّيّة الماضي ليست في فهمه فحسب، وإنّما في معرفة الأشياء التي كان يمكن أن تقال، وفي ما يمكننا قوله الآن، استناداً إلى ما قد قيل سلفاً[١]، وعندما يقول نصر حامد أبو زيد: «إنّنا في كلّ عصر نفهم الماضي فهماً جديداً... وهذا بدوره يعدل من فهمنا الآني لأنفسنا»[٢]، فهما يفيدان أنّ اقتضاءات النظر المعرفيّ، في الزمن اللاحق، معنيّة بالتواصل مع كلّ مناحي الفكر السابقة، وكلّ الفروع الثقافيّة التي قد تكون أُنتِجَت. بل إنّ الانخراط في هموم العصر الراهنة، والخوض في إشكالات الإنسان المعاصرة وانشغالاته اليوميّة، والبحث عن أسئلة الذات والصيرورة والآفاق، وقضايا القوميّة والهويّة، وكلّ ما يهمّ صناعة حاضر أو مستقبل الإنسان المعاصر، تغدو حلقة محكومة بصيرورة، يحتلّ فيها الماضي قطب الرحى، خاصّة إذا تعلّق الأمر بأسئلة المواكَبَة لمستجدّات المرحلة، ومستلزمات تشكيل الوعي والروح؛ بحثاً عن سبل الانخراط الإيجابي والفاعل في صناعة القرار الذاتي، ومسايرة النفس الثوري والحسّ التغييري، الذي غدا ملمحاً بارزاً، يَسِم الأمّة العربيّة في هذا الزمن.

إنّ عظمة تراثنا الفكريّ والأدبيّ، كامنة في قدرته على أن يتيح بعتاقته، الغواية والاستهواء الكفيلين بعدم التردّد في اقتحامه واستثماره؛ لتطعيم الانشغالات المعاصرة التي يفرضها العالم الذي نعيش فيه، وامتلاكه مضيئات محفّزة ومشجّعةً، دافعة نحو الانطلاق والتحرّك، بدل الاكتفاء بضرب الكفّ على الكفّ، وترديد المألوف من عبارات لعن القدر، وصيغ الحوقلة، وإظهار التأسف.

(1) Eco, U, Sémantique et philosophie du language, Puf, 1988, p.13

(٢) أبو زيد، نصر حامد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، ط٥، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م، ص٢٨.

ثلاثة منطلقات تمهيدية:

ولمعاينة تجلّيات البعد التثويريّ في تراث الهاشميّين، وقياس مدى مشروعيّة ادّعاء وجود ملامح الاستنهاض للثورة والتغيير في هذا التراث، يجدر بنا الانطلاق من مقدّمات ثلاثة، تشكّل أساس البحث وأرضيّته.

١. لسنا نقصد بالهاشميّين؛ كلّ من تشيّع لآل البيت عليهم السلام، واعتقد أحقيّتهم بالخلافة والحكم، وتبنّى خطّهم الفكريّ والعقديّ والسياسيّ، وإنّما نحن معنيّون في هذه الدراسة بالفئة المخصوصة من أهل البيت عليهم السلام؛ وهم أفراد من الأسرة الهاشميّة، اتّفقت معظم مصادر السيرة والحديث والتاريخ، على أنّهم محدّدون ومعيَّنون بالوحي (القرآن والسنّة)[١]. أو بعبارة ألفرد بِلْ: «**المقرّرون بقرار إلهي... ولهم مكانتهم الدينية... من عترة النبيّ**»[٢]، و«**الوارثون لمكانته السامية، وعلومه ومناقبه الروحية الخاصّة، وهم جميعاً من ذرّيّته المباشرة من ابنته فاطمة، وهم إذاً، بعد علي بن أبي طالب، حفيد الرسول الحسن، وبعده الحسين، وبعده سلسلة الأئمّة العلويين التسعة**»[٣].

وهم من يُعرَف بالأئمّة الاثني عشر، الذين حازوا مكانة متميّزة في مخيال الإنسان العربيّ المسلم؛ نظراً لارتباطهم النَّسَبِيّ بالبيت النبويّ، فضلاً عن الارتباط العقديّ الخاصّ. وكانت لهم استناداً إلى ذلك مسؤوليّات ترشيديّة وتخليقيّة شبيهة إلى حدّ كبير بمسؤوليّات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فهُم مَنْ يضمن «سلامة الهداية الدينيّة للأمّة الإسلاميّة

(١) يتّفق كثير من أدبيّات أتباع مدرسة آل البيت عليهم السلام على أنّ ثمّة نصوصاً دينيّة؛ لفظاً أو تأويلاً، تحدّد مَنْ هم أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وتبيّن مكانتهم الدينيّة، ووظيفتهم التبليغيّة، وتُلزِم الأمّة باتّباعهم وموالاتهم؛ بوصفهم امتداداً للنبّوة، وتشريعاً ربّانيّاً لاستمراريّة الهدفيّة الدينيّة وتحقيقها. انظر: الحسيني اليزدي الفيروزآبادي، مرتضى: فضائل الخمسة من الصحّاح الستّة، ط٧، قم المقدّسة، مكتبة الفيروزآبادي، ١٤١٣هـ.ق(ثلاثة أجزاء).

(٢) بل، ألفرد: الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقيّ، من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي، ط٣، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م، ص١٥٢-١٥٣.

(٣) م.ن، ص١٥٣.

من الناحية الروحيّة»[١]؛ ما يقتضي بداهة أن تكون كلّ خطاباتهم معنيّة بقضايا الإنسان، وإصلاح المجتمع، وبناء الجماعة البشريّة الصالحة. وأن تُوضَع كلّ النتاجات المأثورة عنهم في سياقها المرجعيّ، بوصفه سياقاً إبلاغيّاً محضاً، معنيّاً بتحقيق التخليق والإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ، ونشر المعرفة وتثبيتها.

٢. للأدب مفهوم شامل وعامّ لا ينفصل فيه ما هو جماليّ فنّيّ عما هو وظيفيّ تخليقيّ ترشيديّ. فاستناداً إلى الحديث المشهور «**أدّبني ربّي فأحسن تأديبي**»، يغدو جوهر الأدب مرتبطاً بكلّ عمليّات التخليق والتهذيب الذاتيّ والاجتماعيّ، وهو ما تحيل إليه مادّة (أدب) في الاستعمال اللغوي، فـ«**أَدَبَ فلاناً وأَدَّبَه: راضَه على محاسن الأخلاق والعادات ودعاه إلى المحامد**»، و«**تأَدَّبَ بأدب القرآن أو أدب الرسول: احتذاه**»، و«**الأدب: رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي**»[٢]، و«**المؤَدِّب: من يُختار لتربية الناشئ وتعليمه**»[٣].

وهذا يستتبع أن تكون كلّ صِيَغ القول التي انتجها الهاشميّون؛ بهدف الإصلاح والتهذيب في المجتمع، داخلة ضمن حيّز الأدب، ومعنيّة بفعل التثوير؛ مهما بدت بعيدة أو غير مباشرة. فنحن معنيّون بأدبهم؛ بما هو مُتَماهٍ مع منظورات الإبداع الوظيفي. يقول برِخْت مثلاً: «فعلى الأثر الفنّي أن يتملّك الجمهور، لا عن طريق التماثل السلبيّ بين الاثنين، بل عن طريق مخاطبة العقل الذي يخاطب العمل والعزم»[٤]. ولقد سبق لـ أوغيست كونت أن ميّز بين نوعين متمايزين من الفنون التي تستحقّ أن تسمّى فنوناً جماليّة؛ بما تحقّقه من لذّة وإمتاع؛ الأوّل عرّفه بالفنون (البهيجة) أو(الملائمة)، وهي التي تكتفي بغائيّة التَّلَذذ والتَّمتِيع

(١) م.ن، ص١٥٣-١٥٤.
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٢، لام، المكتبة الإسلامية، لات، ج١، ص٩.
(٣) م.ن، ص١٠.
(٤) فيشر، إرنست: ضرورة الفنّ، ترجمة ميشال سليمان، لاط، بيروت، دار الحقيقة، لات، ص١٢.

الآنيين، وتنحصر منفعتها في التسلية واللهو وتغذية الشعور بمزيد من عناصر الاستمتاع؛ لتمضية الوقت من أجل التفكّه والهزل، والثاني سمّاه بـ(الفنون الجميلة)، وهي التي تتّسم بطابع الغائية، وإن لم تكن لها غاية محدّدة بدقّة ووضوح، فتسهم في تثقيف الذهن، وتنمية الروح الجماعيّة، وتقوية حساسيّتنا الاجتماعيّة[١].

وهذا يفيد أنّ أهمّيّة الفنّ تكمن في قدرته على أن يتجاوز مجرّد تحقيق المتعة والتلذّذ الذاتيّ، نحو مستوى يصبح فيه فاعلاً في الناس، وعاملاً على تحقيق التغيير في المجتمع؛ عبر جعل الآخرين يشتركون ويتأثّرون، ويحسّون، ولو مؤقّتاً، بانحلال قيود الحياة أمامهم، وارتفاعهم إلى ما فوق صروف القدر العمياء[٢].

٣. ليست الثورة أو المقاومة محصورة في المواجهة المباشرة للخصم، في صورها المسلحة أو غير المسلحة، وإنّما تتّسع مدلولات التثوير لتستوعب «**صيغة الحياة الاجتماعيّة بأبعادها الثقافية والأخلاقيّة والسياسيّة والاقتصاديّة**»[٣]... لتشمل كلّ معاني التعبئة والتهيّؤ العقليّ والنفسيّ، وكلّ صور الإعداد الروحيّ للكائن البشريّ؛ كي يكون عنصراً فاعلاً وإيجابيّاً في وسطه ومحيطه القريب والبعيد، ومن ثمّة يغدو الأدب المرتبط بالتوجيه الأخلاقيّ وبالتكوين المعنويّ للفرد، معدوداً من صميم الأدب الأصيل، فـ«**ليس كلّ الأدب أدباً أصيلاً؛ كما ليس كلّ الأدب أدباً جيّداً، ولا يؤثّر في الجماهير إلا الأدب الأصيل والجيّد. ولا يمكن للأدب أن يكون مؤثّراً ما لم يلامس شعور الناس وإحباطاتهم ومظالمهم**»[٤]، وتغدو سمات البعد التثويري التغييري

(١) ذريل، عدنان: جماليّات كانت وهيجل، مجلّة المعرفة، العدد١٩٣-١٩٤، مارس-أبريل، ١٩٧٨م، ص١٧٠ (بتصرّف).

(٢) انظر: م.ن، ص١١.

(٣) مجموعة من المؤلّفين: الفكر الإسلامي (سلسلة مفاهيم إسلامية)، ط٢، طهران، مؤسّسة البلاغ، ١٤١٤هـ.ق/ ١٩٩٤م، ص١٠٨.

(٤) مجموعة من المؤلّفين: دور الأدب في الوعي القوميّ العربيّ، ط٤، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص٣٦-٣٧.

ملازمة له، بل إنّ مبادئ التثوير وأسس الاستنهاض في وجه الفساد والانحراف تغدو متأصّلة في هذا الأدب ونابعة منه.

ومن يتتبّع التراث الفكريّ للأسرة الهاشميّة، خاصّة مع الأئمّة الأوائل، الذين عايشوا الفترات الصعبة للتحوّل السياسيّ والاجتماعيّ والأخلاقيّ في تاريخ الأمّة العربيّة الإسلاميّة، يجد أنّه تراث وظيفيّ بامتياز، محكوم بروح من الالتزام بقضايا الإنسان والواقع، وسائر جميعه في طريق نشدان التغيير والإصلاح والبحث عن الأفضل. فثمّة دائماً دور وظيفي للأدب، وهو «التغيير والتطلّع إلى الأفضل»[١]، ليس بالضرورة عبر تنظيمات سياسيّة وأحزاب منظّمة بالشكل المعروف حاليّاً، ولكن عبر محاولة إيجاد «جماعة بشريّة ذات هدف مشترك، تقوم بنشاطات متنوّعة، تتّجه نحو الهدف وترتبط بمركز واحد وقلب نابض واحد.. وتسود بين أفرادها روابط عاطفيّة مشتركة»[٢]، فيغدو النتاج الأدبيّ والفكريّ عموماً منفتحاً على الناس وعلى المجتمع، أو ما يعبّر عنه بـ«اقتراح مفهوم جديد للنشاط التواصليّ يدعو إلى نظريّة للمجتمع»[٣]، وتصبح للمثقّف والمبدع رسالة إنسانيّة عظيمة الشأن، أساسها «تكميل العباد وتعمير البلاد»[٤].

(١) خزندار، عابد: نحو أدب وظيفي قادر على التغيير، مجلة المنهل، العدد ٤٨٠، المجلد ٥١، ١٤١٠هـ.ق/١٩٩١م، ص٩١.

ويشير هذا الباحث إلى أنّ الأعمال الخالدة في الآداب العالميّة، منذ الأدب الكلاسيكيّ الإغريقيّ، إلى الكلاسيكيّة الجديدة مع راسين، وكورني، وبلزال، واستندال، وفلوبير، وتولستوي، وتوماس مان في الغرب، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وفي أعمال ما بعد الحداثيين .

(٢) الخامنئي، علي: قيادة الإمام الصادق، ترجمة محمد علي آذرشب، ط٢، قم المقدّسة، منشورات رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، ١٩٩٨م، ص٨٩.

(٣) حيدر، محمود: جدل الفلسفي - السياسيّ في فكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر -، مجلة المنهاج، العدد٢٤، السنة١١، ١٤٢٧هـ.ق/ ٢٠٠٧م، ص١٨.

(٤) م.ن، ص١٨.

أولاً: سياسة التخليق طريقاً للبناء التثويريّ:

لقد كانت الوظيفة الأساس لفكر الهاشميّين ممثَّلة في محاولة حفظ الأمّة من صُوَر التخبّط والتشويش، فيسهل على المتتبّع لنتاج الهاشميّين، أن يلاحظ أنّه تراث روحيّ معنويّ بامتياز، فالرصيد المعنويّ عندهم قيمةٌ لا يجوز الاستهانة بها[١]، وهو متنوّع ومتشعّب، من حيث موضوعاته وقضاياه، يلامس كلّ قضايا الإنسان، في بعده المادّيّ الجسديّ، وفي بعده المعنويّ الروحيّ، وفي بعده النفسيّ العاطفيّ، كما في بعده العقليّ المعرفيّ، في بعده الذاتيّ الخاصّ، وفي بعده الاجتماعيّ العلائقيّ على حدّ سواء. وهذا يشير بداهة إلى انخراط هؤلاء المنتجين فعليّاً، في سياسة التغيير والتثوير من أجل صيانة هويّة الأمّة.

إنّ الهاشميّين من أئمّة أهل البيت جميعهم، تميّزوا بعنايتهم الفائقة بأفراد المجتمع، وباهتمامهم بحاجيّات الناس والإنصات لمطالبهم، مهما كانت خاصّة. فقد وحّدت بينهم سنّة «المواساة والشعور بآلام الضعفاء والمحرومين والبؤساء والمبتلين... وللإنسان قيمته الخاصّة عندهم، وهو جزء من برنامج حياتهم... وهم يتولّون ذلك مباشرة لا مجرّد أن يأمروا بذلك ويُوكِلوا شخصاً آخر لذلك»[٢]. فمن المنطقي واللازم، وفق هذا الملمح في حياة الهاشميّين، النظرُ إلى هذا الخطاب من زاوية انفتاحه على الواقع، وربط هذا الخطاب بالنسق العامّ الذي أُفرِزَ في سياقه. فهم «يضعون الواجبات الاجتماعيّة التي عليهم نصب أعينهم»[٣]، بل إنّ مركز الإمامة والمسؤوليّة المُسنَد إليهم يكاد يفقد معناه ومدلوله الأصيل؛ إن هو لم يمتدّ ليشمل هذا البعد الاجتماعيّ الواقعيّ.

إنّ للبناء الأخلاقيّ والتكوين الروحيّ الأهمّيّة البالغة في كلّ النتاج

(١) كتّاني، سليمان: الإمام زين العابدين عنقود مرصّع، دراسة أدبيّة تطهيريّة في الإمام علي بن الحسين، ط١، لام، دار الروضة، ١٤١٤هـ.ق/١٩٩٣م، ص٢٣٨.

(٢) مطهري، مرتضى: سيرة الأئمّة الأطهار، ص١٥٠.

(٣) شريعتي، علي: الدعاء، ص٥١.

المأثور عن الأسرة الهاشميّة؛ ما يجعل من ذلك سمات مهيمنة تلمّ كلّ أصناف القول لديهم، وتعطيه شكله المنسجم والمتّسق، فتتحوّل إلى قيمة مهيمنة توحّد الخطاب وجزئيّاته؛ ما ينمّ عن غايات إقناعيّة بيّنة، يُراد ترسيخها وتثبيتها في نفسيّة المتلقّي وترجمتها في سلوكه. فالتركيز على موضوعات أو إشارات محدّدة وتغليبها - كما يرى فينو - عمليّة عقليّة تحمل المُخَاطَب على المشاركة في الرؤية وعلى التأثّر بها، والسعي إلى تغيير مختلف التمثّلات لديه؛ عبر إبراز جوانب معيّنة مستهدفة، وإخفاء أخرى مستهجنة[١].

إنّ المجتمع البشريّ لا يمكنه أن يكون مجتمعاً فاعلاً وإيجابيّاً، ولا يمكن أن يُوسَم بالمجتمع الثوريّ؛ حقيقة لا اعتباراً، ما لم يكن الأفراد الذين يُؤَلِّفونه متّصفين بالقدر الكافي من الإيجابيّة والفاعليّة التي تؤهّلهم للفعل المبادر، والمشاركة المثمرة في بناء الحضارة الإنسانيّة، وتشييد المجتمع القائم على أركان وأسس العيش الإنسانيّ الكريم، الذي لا يتنكّر فيه الإنسان لإنسانيّته. فلقد امتثل الأدب الهاشميّ للرؤية التخليقيّة الترشيديّة التي تحكّمت في منظورات الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام إلى الإنسان؛ إذ «الشيء الذي يريده الأنبياء عليهم السلام هو الإنسان، ولا يوجد شيء آخر. فكلّ شيء ينبغي أن يتحوّل إلى صورة إنسان. فإذا تمّت صناعة الإنسان يصلح كلّ شيء»[٢]. ويُعدّ العنصر الأخلاقيّ أساس إنسانيّة هذا الإنسان، فإذا لم تكن الغايات التخليقيّة من أولويّات الحركة التغييريّة في أيّ مجتمع مستنهَض؛ فإنّ الفشل يكون حتماً حليف هذه الحركة.

وغير خافٍ أنّ روّاد الحركة الإصلاحيّة وزعماء الثورة في الزمن المعاصر، يشيرون إلى أنّ الخطر الأكبر المهدّد للشعوب المستضعفة

(١) شارودو، باتريك؛ منغونو، دومينيك: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري؛ حمادي صمود، لاط، تونس، دار سيناترا؛ المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨، ص٧٠.

(٢) نور الدين، عباس: بحثاً عن نهج الإمام، ط١، بيروت، مركز بقية الله الأعظم، ١٩٩٧م، ص٧٧.

من قوى الاستكبار العالمي، هو «**سلب اعتقاد الجيل الجديد بالدين وبالأصول الثوريّة وبالفكر الفعّال... بهدف القضاء على جذور الثقافة والتراث الفكريّ والقوميّ للشعوب**»[١]. فالخوف الحقيقي لقوى الاستكبار هو «**من الإيمان العميق عند الشعوب الغيورة والمعتقدة بالأصول والقيم**»[٢]. وأهمّ ما تعمل من أجل تحقيقه هذه القوى، خاصّة في الزمن المعاصر؛ هو «**القضاء على المفاهيم الإسلاميّة في الأذهان**»[٣]. لذا، فإنّ جوهر العمل التثويريّ تلخّص عند الهاشميّين مبكّراً في محاولة صناعة الإنسان؛ عبر صياغة المنظومة القيميّة التخليقيّة الكفيلة بتكوين الإنسان القادر والفاعل في محيطيه الخاصّ والعامّ.

ثانياً: تنويع الصيغ القوليّة لتحقيق البناء التثويريّ:

١. الواجهة الشعريّة وسمات الإعداد الذاتي:

بمعاينة النتاج الشعريّ المأثور عن أهل البيت، يتبيّن تحرّكه في مجمله ضمن دائرة الغايات التخليقيّة المحضة. ومن يتأمّل الشعر المنسوب إلى الأئمّة الهاشميين؛ كالإمام علي بن أبي طالب - مثلاً - أو ابنه الحسن، أو الحسين، أو زين العابدين السجّاد، أو جعفر الصادق، يجده يصبو إلى غاية واحدة؛ وهي حفظ تفاصيل التديّن وإبقاؤها حيّة ومعيشة بين الناس، مجسَّدة في الأفراد بصلابة ومتانة؛ من أجل التأسيس لزعامة لا تختصّ بالشخص الفلانيّ أو الحزب الفلانيّ أو الفئة الفلانيّة، وإنّما للأهداف الرساليّة الكبرى، التي أرادها الإسلام للأمّة والإنسانيّة عامّة؛ أي بناء «زعامة الإسلام وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلاميّ، وبالتالي في مجموع البشرية على وجه الأرض»[٤].

(١) نور الدين، بحثاً عن نهج الإمام، م.س، ١٩٩٧م، ص٥٠.
(٢) م.ن، ص٥٠.
(٣) م.ن، ص٤٩.
(٤) الصدر، محمد باقر: أهل البيت تنوّع أهداف ووحدة هدف، لاط، بيروت، دار التعارف، لات، ص٦٠.

فثمّة مراهنة على تكوين الفرد الواعي بمسؤوليّته الرساليّة، والممتلك لإرادة قويّة؛ لترسيخ القيم الإيجابيّة في نفسه ومحيطه، فيستحضر في كلّ لحظاته وآنات حياته، أنّه يعيش هذه الرسالة ولا يعيش نفسه، ويعيش من أجل أهداف الرسالة الإنسانيّة، وليس من أجل نفسه «يعطي العمل الشخصيّ طابعه الرسالي، لا طابع المكاسب الشخصيّة»[١]. ويمكن رصد جملة سمات تثويريّة متواترة في أدب بني هاشم يُراد بها تحصين الأمّة ضدّ أيّ استبداد أو ظلم:

أ- ثمّة ما يمكن نعته بـ(**سِمَة التعقّل**) في شعر الأسرة الهاشميّة، فالأمّة الحقّة ليست تلك التي تختزل ذاتها في بعدها المادّيّ، بل الأمّة الحقّة هي التي لها رصيد معنويّ وقيم أخلاقيّة وروحانيّة، قوامها التعقّل والوعي والنباهة. أو هي «**الأمّة المشتاقة إلى صفاء ونقاء، يعزّزان فيها الصدق والحقّ والإباء**»[٢]. كلّ ذلك مسبوقاً بالمعرفة والعلم، فـ«**وحده العلم الحقّ يزيّن الطلب، ويملأ الفكر والنفس بمآرب الروح، ويرفض الظلم، ويأبى الخسف في الميزان. والعلم هو التقوى؛ وهو مخافة الله في عباده، وهو عاتق الميزان**»[٣].

ينسب إلى علي بن أبي طالب أنّه قال[٤]:

وأفضل قَسْم الله للمرء عقلُه ... فليسَ من الخيرات شيءٌ يقاربه

ومن ثمّة، فالجمال الشخصيّ الحقيقيّ كامن في قيمته المعنويّة، التي بها وحدها تتحقّق هويّته وشخصيّته الحقّة. لذا نقرأ عن علي قوله[٥]:

ليسَ الجمالُ بأثوابٍ تُزَيِّنُنا ... إنَّ الجمالَ جمالُ العقلِ والأدبِ

أيُّها الفاجرُ جهلاً بالنسب ... إنّما النّاس لأم ولأبْ

إنّما الفخرُ لعقلٍ ثابتٍ ... وحياءٍ وعفافٍ وأدبْ

(١) الصدر، أهل البيت تنوّع أهداف ووحدة هدف، م.س، ص٦٢.
(٢) كتّاني، سليمان: الإمام زين العابدين، ص٢٣٧.
(٣) م.ن، ص٢٣٧.
(٤) ديوان علي بن أبي طالب، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، لاط، بيروت، دار ابن زيدون، لات، ص٣٦.
(٥) م.ن، ص٣٧.

فيكون التأكيد على مركزيّة العقل المتخلّق في شخصيّة الإنسان؛ مساهمة مبكّرة في التأسيس للمجتمع البشريّ المتعقّل، ودفاعاً عن القيمة الإنسانيّة الكاملة، وبحثاً عن تحقّقاتها في صورها النموذجيّة؛ من أجل إيجاد الفرد أو الإنسان المتحرّك ضمن دائرة الرؤية القرآنيّة. لذلك نجد أنّ الإطار العام المتحكّم في عمليّات التوعية، محكوم بالفكرة القرآنيّة (أمّة اِقرأ)؛ فهي نفسها «الحالّةُ هناك في سور القرآن، وهي ذاتها التي فاضت بها دفتا القرآن»[1]. ومعلوم أنّ الأمّة العاقلة كانت الأمّة الأنموذج في الخطاب القرآنيّ والدينيّ عموماً، وظلّت الغاية المنشودة في المسيرة الإصلاحيّة للأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام وكلّ المصلحين. وكان التعقّل لا ينفصل عن التديّن، بل كان دعامته وأُسّه. فالقرآن الكريم يؤكّد في العديد من الآيات على أهمّيّة التعقّل والتفكير الصائب والتدبّر في الأمور. والأحاديث المرويّة عن الرسول صلى الله عليه وآله، والأئمّة من أهل بيته، تبيّن كون العقل أساس الهويّة الإسلاميّة للفرد، وأساس الحركة الاجتماعيّة[2]. وتأكيده في سياق شعر الهاشميّين، يُراد به الاندغام مع معايير النظريّة التغييريّة العامّة في منظور المسلم عموماً.

ب- الشجاعة الحيدريّة: سِمَة أخرى ملازمة للإبداع الهاشميّ، ففي منظوراتهم الشعريّة، لا يمكن الاطمئنان إلى مجتمع قويّ وقادر على الاستمرار في الحياة؛ ما لم يكن أفراده متحلّين بالشجاعة الكافية، ومبادرين إلى خوض المعارك على جميع الجبهات - بما فيها المعارك الحربيّة المباشرة - من دون خوف ولا وجل ولا تردّد. وحينما يُعرِّف الهاشميّون أنفسهم، يركّزون بداية على عنصر الشجاعة والإقدام:

وإنّـا أنـاسٌ لا نَـرى الـحـربَ سُبَّةً ... ولا نَنْثَني عنْـدَ الـرِّمـاحِ المداعِسِ
فَـما قيـلَ فينا بَـعْـدَهـا مـن مَقالةٍ ... فـما غـادَرتْ منّا جَـديـداً لِلابِسِ[1]

(١) كتّاني، الإمام زين العابدين، م.س، ص٢٥٥.
(٢) جدير بالتنبيه إلى أنّ قضيّة العقل وعلاقته بالدين، كانت مثار خلافات كبيرة عبر تاريخ الأمّة الإسلاميّة، وعنها تولّدت فِرَق إسلاميّة كبيرة؛ كالخوارج والمعتزلة والأشاعرة والظاهريّة والمرجئة وغيرهم.

فالحرب في عرفهم هي عنوان كلّ المفاخر، وبها تتحقّق الهويّة، وتثبت الشخصيّة؛ مهما تكن الخطورة المحتملة، ومهما تكن النتائج المتوقّعة، ومهما يصدر من مواقف واعتراضات عن هذه الجهة أو تلك. فما دامت حركة الفرد هي في سبيل إقامة الحقّ، وأنّ منطلقها الوقوف في وجه الباطل والانحراف؛ فهي وظيفة إنسانيّة لا بديل عنها.

وفي هذا يقول الحسين بن علي[٢]:

فَإِنْ نَهْزِمْ فَهَزَّامُونَ قُدماً وَإِنْ نُهْزَمْ فَغَيْرُ مُهْزَمِينَا
وَمَا إِنْ طِبّنَا جبنٌ ولكنْ مَنَايَانَا وَدولةُ آخَرِينَا

ويقول في سياق آخر: «**إنِّي لا أَرَى المَوْتَ إلاَّ سَعادَةً، والحَياةَ مَعَ الظَّالمينَ إلاَّ تَبَرُّماً**»[٣]. وعنه - أيضاً -: «**هَيْهَاتَ منَّا الذِّلَّة**»[٤]. وهي صور على قَدر كبير من الأهمّيّة، تُعلن الموقف الحاسم من كلّ مَنْ يهدّد الحرّيّة والكرامة الإنسانيّة، وتعلن الاستعداد للموت والإسعاد به بدل الكينونة مع الظالم. فالهاشميون يقدِّمون أنفسهم قدوة في التصدّي والمواجهة، وهم في مقدِّمة المدافعين عن الحقّ، والمحاربين لكلّ صُوَر الظلم والجبروت، بغضّ النظر عن النتائج المُحصَّلة. فمع الشجاعة والمبادرة للتغيير، تغدو الهزيمة انتصاراً وظفراً، إن لم يكن مادّيّاً وملموساً؛ فهو انتصار معنويّ؛ عبر تثبيت الحقّ، ومحاصرة الباطل. بل تلك هي السعادة عينها.

والصورة التي يرسمها الهاشميّون عن الإنسان الحقيقيّ صورة مشرقة، يجلّيها ذلك الإنسان المقدام، المحارب قوى الاستكانة والذلّ قبل غيرها، الوارد موارد التضحية، والخائض غمار المكاره مهما يكن نوعها:

في الجُبْنِ عارٌ وفي الإقْدامِ مَكْرُمَةٌ وَمَنْ يَفِرَّ فَلَنْ يَنْجُوَ مِنَ القَدَر[٥]

(١) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٨٨.
(٢) ماردیني، عبد الرحيم: ديوان الإمام الحسين بن علي وصاياه وحكمه وكرمه، ط١، دمشق، دار المحبة؛ بيروت، دار آية، ٢٠٠٥م، ص١٥٦.
(٣) م.ن، ص٣٩.
(٤) م.ن، ص٤٤.
(٥) ماردیني، ديوان الإمام الحسين بن علي وصاياه وحكمه وكرمه، م.س، ص٨٢.

ولا يتحقّق ذلك ما لم يكن الفرد قد تشبّع بقيم الصبر والتحدّي:

وأَحْزَمُ صبراً حينَ يُدعَى إلى الوَغى ... إذا كانَ أَصواتُ الكُمَاةِ تَغَمْغُما[١]
تَرَدَّ رِداءَ الصَّبر عندَ النَّوائبِ ... تَنَلْ مِن جمَيلِ الصَّبر حُسنَ العَواقبِ[٢]

ومن ثمّة، الهاشميّ عموماً لا يُعرِّف نفسه للآخرين، إلا بوصفه فارساً شجاعاً، لا يخاف الحروب، ولا يتولّى عند الزحف، يبادر إلى فعل التغيير والمواجهة، من دون تراجع ولا خوف ولا جبن[٣]:

وكنتُ امرءاً أَسْمو إذا الحربُ شمَّرَتْ ... وقامتْ على ساقٍ بغيرِ مُليمِ
وسَيْفي بِكَفّي كالشِّهاب أَهُزُّهُ ... أَجزُّ بهِ مِنْ عائقٍ وصميمِ

ويقول[٤]:

سَتَشْهدُ لي بالكرِّ والطَّعْن رايةٌ ... حَباني بها الطُّهْر النَّبيُّ المهذَّبُ
وتعلَمُ أنّي في الحروبِ إذا الْتَظى ... بنيرانها اللّيْثُ الهَموسُ المرَجَّبُ
ومثلي لاقى الهولَ في مُفْظَعاته ... وَقُلَّ لَهُ الجَيْش الخميس العَطَبْطَبُ
وَقَدْ عَلِمَ الأَحياءُ أنّي زعيمُها ... وأنيّ لَدى الحرْبِ العُذَيْقُ المُرَجَّبُ

فنلاحظ كيف تقوم الصورة الشعرية على الاحتجاج بالتاريخ والأيام السالفة، التي تشهد بمعارك الذات الهاشميّة في الحروب، وبالمواجهة الفاعلة الحاذقة التي تكشف عن هزيمة جيش الظلم العرمرم. وهو عندما يعبّر بألفاظ معجميّة تنتمي إلى العزّ والفخر (العُذَيق = ذو العزّ والفخرّ)، وإلى التعظيم (المرَجَّب = المعظّم)، فهو ينشد إقناع المتلقّي بأنّ هذه القيم لا تتحقّق إلا مقترنة بالفعل والمبادرة والإقدام. ومن شأن هذا أن يكون درساً تثويريّاً، يُلقي المسؤوليّة على كلّ مَنْ يزعم الاقتداء والتبعيّة للإمام. فها هو يدعو كلّ موالٍ، صراحة وبشكل خطابي مباشر، إلى النهوض والمبادرة بغضّ النظر عن النتائج المحصَّلة. فما دام في

(١) م.ن، ص١٢٧.
(٢) م.ن، ص٣٥.
(٣) م. ن، ص١٣٠.
(٤) م.ن، ص٤١.

الواقع ما يستدعي النهوض ويقيّد الحركة نحو التحرّر والاستقلاليّة؛ فلا يجوز للذات أن تظلّ أسيرة العجز والفشل. يقول الإمام علي:

خاطرْ بنَفْسكَ لا تَقعُدْ بمعجزةٍ ... فليسَ حرٌّ على عَجْزٍ بمغْدورِ
إنْ لمْ تنلْ في مقامٍ ما تُحاولُه ... فَلْتَبْلُ عُذْرًا بإدْلاجٍ وتهْجيرِ[1]

فالحرّيّة تنتفي وتستحيل في ظلّ ثقافة انهزامية، والإنسان الحقّ مطالب دوماً بالمبادرة الآنيّة، وطرد ثقافة التسويف والتأجيل، التي تضيع معها الفرص وتتعطّل المشروعات:

ولا تُرْجِ فعلَ الخيرِ يوماً إلى غدٍ ... لعلَّ غداً يأتي وأنتَ فقيدُ[2]

وفي سياق الفعل الثوري، لا يمكن التعويل على الإنسان المتردّد، الذي يُقدِّم رِجْلاً ويُؤخِّر الأخرى في مواجهة الحياة، بل ينبغي أن يكون آنيّاً لا يطمئن إلى الغدّ ولا يعيش على التسويف والتأجيل.

ج - **التميّز وطلب المعالي**: قيمة إنسانيّة متأصّلة في الشعر الهاشميّ، بل إنّ الفرد يفقد قيمته؛ ما لم يكن توّاقاً نحو الأفضل، وما لم يكن باحثاً عن التميّز والتفرّد، وسائراً قُدُمَاً في تطوير نفسه، وسالكاً طريق الكمال بجميع صوَرِه؛ المادّيّة منها والمعنويّة. ومن البديهي أن يكون الإنسان ساعياً إلى تغيير الأوضاع المتردّية؛ سياسيّة، واجتماعيّة، وغيرهما. فالإنسان الثوريّ الذي يمكن التعويل عليه في مواجهة صُوَر الاستبداد والظلم، هو من يثبت نفسه فرداً صالحاً ومفيداً في مجتمعه. لا يقعد عن خدمة الصالح العامّ، ولا يتوانى عن أيّ حركة تبتغي صيانة حقوق الناس؛ امتداداً أفقيّاً لالتزاماته الولائيّة الواجبة أمام الله. هذا الامتداد الأفقي يشمل مختلف علاقات الفرد في ارتباطاته الاجتماعيّة؛ مستوعباً كلّ المناحي العائليّة والتجاوريّة والتصاحبيّة

(١) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٧٦.
(٢) م. ن، ص٦٢.

والتقاربيّة، بل وحتى الإنسانيّة العامّة[١]. فجميعها في عهدة الفرد:

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفْسَهُ ... فكنْ طالباً في الناس أَعْلى المَراتبِ[٢]
وكنْ موجباً حقَّ الصديق إذا أتى ... إليكَ بِبِرٍّ صادقٍ منكَ واجبِ
وكنْ حافظاً للوالدينِ وناصِراً ... لجارِكَ ذي التَّقْوى وأَهْلِ التَّقاربِ

د- **التكريم والتعزيز:** سِمَة تثويريّة إضافيّة أراد بها الهاشميّون للإنسان أن يكون عنصراً فاعلاً ومنتجاً، لا ينتظر عطايا الآخرين، ولا يضع نفسه في موقف الذليل والمستهلك؛ لأنّ المجتمع القويّ لا يمكن أن يتأسّس على أفراد سلبيّين منتظرين عاجزين عن العمل، وفي حكم العالة على الآخرين. فموطن الإنسان بحسب المنظور التثويري التغييريّ للأئمّة، لا مجال فيه للذل أو الهوان[٣]:

ولا تكنْ ساكناً في دار ذُلٍّ ... فإنَّ الذلَّ يُقرَنُ بالهَوانِ

والإنسان هو وحده القادر والمسؤول عن حياته الكريمة، يُوجِد لنفسه المكانة التي تليق بكرامته الإنسانيّة من خلال حسِّه النهضويّ، وتَوقِه الدائم نحو الأفضل[٤]:

إذا أطمأَتْكَ أكُفُّ الرجال ... كفتك القناعة شِبْعاً وريا
فكُنْ رَجُلاً رِجْلُه في الثَّرى ... وهامةُ هِمَّتِه في الثريا

إذ لا مجال لحياة كريمة، ولا لحرّيّة ممكنة في ظلّ الخذلان والتقاعس والاختيارات السلبيّة:

كِدَّ كَدَّ العبدِ إنْ أحببـ ... ـتَ أن تُصْبِح حُرّا[٥]

(١) في قولة مشهورة مأثورة عن علي بن أبي طالب: «الناسُ أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لكَ في الخَلق». وهي تشير إلى أصالة الارتباط الإنسانيّ بين الفرد وغيره من بني البشر؛ ما يستلزم مراعاة جميع الحقوق التي من شأنها أن تحفظ هذا الارتباط وتنميه شعوراً متأصّلاً في نفسيّة ووعي كلّ إنسان في علاقته بالآخر، بغضّ النظر عن خصوصيّته العرقيّة أو العقديّة أو الفكريّة أو غيرها. فالواجبات الإنسانيّة مهيمنة على كلّ ما سواها ومستوعبة له.

(٢) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٣٥.

(٣) م.ن، ص١٤٥.

(٤) م.ن، ص١٥٣.

(٥) ديوان علي بن أبي طالب م. س، ص٧٨.

والإمام عندما يدعو إلى ابتغاء الرزق من الكسب الحلال؛ فهو يدفع بالإنسان إلى أن يكون مستقلاً غير تابع، وغير مُلزَم بتقديم تنازلات تُحِدّ من كرامته الإنسانيّة؛ بما هي أصل وغاية[١]:

وكنْ طالباً للرِّزْقِ منْ بابِ حلَّة ... يُضاعَفْ عليكَ الرِّزْقُ منْ كُلِّ جانبِ
وصُنْ منكَ ماءَ الوجه لا تَبْذُلنَّه ... ولا تَسألِ الأرذالَ فَضْلَ الرَّغائبِ
لا تطلبنَّ معيشةً بمذلَّةٍ ... وارْبَأْ بنفسكَ عن دَنِيّ المَطْلَبِ

إنّ الإنسان خُلِقَ ليعيش عزيزاً مكرَّماً؛ فلا يحسن به أن يسمح بالمساس بهذه الكرامة، فهي أشدّ على المرء، في الأدب الهاشمي، من أيّ مصيبة أو نائبة قد تصيبه. ومن المأثور عن علي بن أبي طالب: «**يَنامُ الرَّجُلُ على الثُّكْلِ ولا يَنَامُ عَلَى الحَرَب**»[٢]، و«**ماءُ وَجْهِكَ جامدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤَالُ، فَانْظُرْ عندَ منْ تُقْطِرُه**»[٣].

هـ - **الجدّ والعمل**: قيمتان مضافتان إلى ما سبق؛ للمساهمة في بناء الفرد المناسب والصالح في محيطه؛ فلا يمكن للفرد أن يمتلكَ القدرةَ الكافيةَ على مواجهة الظالم ومخالفة المستبد؛ إذا كان معتمداً عليه في معاشه، وكان مصدر رزقه قائماً على ما يتفضّل به هذا المستبدّ على هذا المحتاج؛ من نِعَم وخيرات. فحريّ بالإنسان - إذن - أن يكون مستقلاً في معاشه عن أيادي المنّ والتذليل[٤]. لذا، وجدنا أنّ أدب الأسرة الهاشميّة يُولي المسألة أهمّيّة بالغة، فيلحّ كثير من الأبيات الشعريّة على التحلّي بروح المبادرة إلى العمل، وعلى الإخلاص فيه، والجدّيّة التامّة في تعاطيه؛ من أجل صيانة الإنسان

(١) م.ن، ص٣٥.
(٢) الموسوي، الحسين (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، تحقيق وتنسيق علي أنصاريان، ط١، دمشق، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، ١٤٢٧هـ.ق/ ٢٠٠٧م، ص٥٣٤.
(٣) م.ن، ص٥٣٠.
(٤) ندرك جيّداً كيف أنّ الحكّام في كلّ زمان، كانوا ولا يزالون يعتمدون شراء الذمم، ويخرصون الأفواه؛ عبر اعتماد سلاح الإنعام وإغداق الخيرات وتوفير الإمكانات المادّيّة لكلّ من يُخشى منه النهوض في وجه الظلم. وفي وجود المدح التكسّبي في التراث الشعريّ العربيّ دليل على مدى فعّاليّة هذا السلاح وخطورته.

من مخاطر الإذلال، وإراقة ماء الوجه في سبيل كسب القوت.

وفي النهي عن سؤال الأرذال؛ توجيه اجتماعيّ وسياسيّ عميق الدلالة، فالإنسان الشريف لا يُقبَل منه في عُرْف الهاشميّين، ولا يَرضَى لنفسه أن يَقبَل المال المشبوه، المحصّل من حرام، أو من أيّ طريق ينافي الشفافيّة والإباحة. كما لا يحقّ الركون إلى الأراذل من الناس، وفي مقدِّمتهم السلاطين والحكّام وكلّ مسؤول يعيش على الظلم والسرقة والعبث بالمال العامّ[1]:

وَصُنْ منكَ ماءَ الوجهِ لا تَبْذُلنَّه ... ولا تَسأَل الأرْذال فضْلَ الرَّغائبِ

وعندما يقول الإمام علي[2]:

والفقرُ شينٌ للرجال فإنَّه ... يُزْرَى به الشهمُ الأديبُ الأنسبُ

فهو يقصد تحريك الإنسان ضدّ سياسة التفقير والتجويع، التي قد ينتهجها المستبدّون للتمكّن من رقاب الناس. بل إنّ رجولة الإنسان تغدو، في حالة فقره وإملاقه؛ مهدّدة في صميمها. فإذا عاش المرء على ما يفضُل عن الآخرين، وقَبِلَ لنفسه أن يكون قابضاً بدل أن يكون هو المُعطي؛ فإنّه يقبل التنازل عن كلّ قِيَم الشهامة والرجولة الحقّة. وعندما قال أبو ذر الغفاري: «**عجبتُ لمنْ لم يجدْ قوتَ يومه كيفَ لا يخرجُ شاهراً سيفَه**»؛ فهو إنّما كان يجسّد أحد مصاديق الامتثال لهذه التوجيهات التثويريّة؛ وهو إنّما يكشف عن مِثل هذه المخاطر التي يمكن أن تلحق بحقيقته شخصاً كريماً عزيزاً، لا يذلّه الفقر، ولا يسكت عن حقّه؛ متى سُلِبَ منه أو ضاع منه. بل إنّ تفشّي الفقر واستفحاله في المجتمع؛ يعني حتماً أنّ ثمّة فئة معيّنة قد استبدّت بحقوق العباد، واستحوذت على مصادر عيشهم؛ ما يستلزم حتماً النهوض والمواجهة، بدل القبول بالأمر الواقع. وفي هذا

(١) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٣٥.
(٢) م.ن، ص٥١.

السياق ندرك دعوة الكريم إلى الجود بما يملك[١]:

إذَا جَادتِ الدُّنْيا عَليكَ فجُدْ بها ... على النَّاس طرّاً إنّها تتقلَّبُ

فليس الأمر متعلّقاً بقيمة الكرم مندوباً إليها الفردُ استحباباً، وإنّما هي توجيهات اجتماعيّة سياسيّة إلزاميّة، تروم تنمية روح الإحساس بالآخرين، ومراعاة أحوالهم المعيشيّة، في وعي الإنسان المسلم. وكما يعبّرون فـ«المساحة المؤمنة من المجموعة البشرية بعضهم من بعض، وبعضهم أولياء بعض، يجمعهم الولاء لله وللرسول، وحبّ الله وحبّ رسوله»[٢]. ولا يمكن والحال هذه، القبول بأن تُهتَك حرمة وكرامة أيّ عنصر من هذه الجماعة، بأي وجه.

و- **قيمة الاستقلاليّة والمسؤوليّة الذاتيّة**: التي تتعزّز وتترسّخ في نفس الفرد وحياته من خلال مراعاة القيمة السابقة. وهذه القيمة سِمَة أخرى في شعر الهاشميّين، جسّدوها من خلال تأكيدهم على أهمّيّة تكوين الإنسان المستقلّ، الذي يكون قراره بيده، ومصيره مصنوع وفق قناعاته وتكوينه الخاصّ، ووفق اختياراته الشخصيّة، لا وفق إرادات الآخرين. ومن هنا، فكلّ انتساب لجهة أو حزب أو طائفة أو غيرها أمر عديم الجدوى والمردوديّة الإنسانيّة؛ ما لم تدعمه وتثبّته الفعّاليّة الذاتيّة، وما لم تطبعه بصمة الفرد الخاصّة[٣]:

كن ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ أدباً ... يُغنيكَ محمودُهُ عَنِ النَّسب
إنَّ الفَتى مَنْ يقولُ ها أنا ذَا ... ليْسَ الفَتى مَنْ يَقولُ كانَ أبي

هذا الفرد معنيّ بأن يكون حيويّاً ونشيطاً في مجتمعه، يلتمس الأشياء بنفسه، يقصدها ويأتي إليها، ولا ينتظر أن تصله من الآخرين:

ولستُ بإمَّعَةٍ في الرِّجَالِ ... أُسائلُ هذا وذا ما الخَبَرْ[1]

(١) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٤٦.
(٢) الآصفي، محمد مهدي: الولاء والبراءة (ولاية الله)، ط١، طهران، رابطة الثقافة والعلاقات الاجتماعية، مديرية الترجمة والنشر، ١٩٩٧م، ص١٢٨.
(٣) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٣٧.
(٤) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٧٥.

وفي هذا حسّ تثويريّ لا يخفى؛ لأنّ المرء يغدو في مقدّمة المستطلعين أموره وأمور الآخرين - أيضاً -، ويصبح حينئذ مصدراً للمعلومات والمستجدّات بدل أن يكون مجرّد متلقٍّ سلبيّ. بل إنّ أهمّيّة هذه القيمة المعنوية كامنة في حفظ الإنسان من مخاطر الإشاعات والأخبار الكاذبة، التي كثيراً ما يلجأ إليها الحكّام والظالمون؛ لضمان استقرار الأوضاع، واتّقاء خطر الثورات والاحتجاجات.

بل إنّ في هذه القيمة تأسيساً بيّناً لأصول التعامل الإعلاميّ؛ بما هو واجهة حاسمة من واجهات الاستنهاض، وركيزة هامّة من ركائز نجاح الفعل الثوريّ. وغير خاف أنّ كلّ ذلك مقدّمات لتحقيق الاستقلال السياسيّ. فمن المسلَّم به عند روّاد الثورة المعاصرة أنّ «**مقدّمة الاستقلال الاقتصاديّ هو الاستقلال السياسيّ. فالدول التابعة من الناحية السياسيّة لن تكون قادرة، كما أنّها لا تمتلك الدافع للحرّيّة والاستقلال الاقتصاديّ**»[1].

ز- **التحصّن من الهوى**: سِمَة تثويريّة أخرى تقضي بحتميّة التجرّد الذاتيّ، والإخلاص في خدمة المجتمع. فلا يمكن التعويل على المرء في بنائه المجتمع الإنسانيّ الأنموذجي، إلا حالةَ كان مُخلِصاً لقضيّته، ومتحاشياً الانسياق وراء الأهواء والغرائز الخاصّة:[2]

بادرْ هَواكَ إذا همَمْتَ بصالحٍ ... خوفَ الغوايةِ إذْ نَجيءُ وتغْلب

فتأكيد أمر إصلاح السريرة وتجنيبها إغراءات الهوى، ونداءات الغواية، وإملاءات النفس الأمّارة؛ يهدف إلى إيجاد فئة اجتماعيّة تتأسّس على التفاني في خدمة الصالح العامّ. و«**إنّ مِنْ أهمّ عوامل تكامل الإنسان ونموّه وقربه من الله (مخالفة الهوى)، والسيطرة عليها وإخضاع**

(١) أنوار الولاية (كلمات مضيئة للإمام القائد الخامنئي)، ط١، بيروت، منشورات مركز بقية الله الأعظم، ١٩٩٩م، ص٣٩.

(٢) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٤٥.

الهوى لأمر الله تعالى ونهيه»[١]. وهو عمل ليس بالسهل، ويتطلّب جهداً كبيراً ومثابرة نفسيّة وسلوكيّة عسيرة وشاقّة؛ بـ«**أن يقدِّم الإنسان إرادة الله تعالى على إرادته، وحكمه تعالى على رغباته وأهوائه**»[٢].

وعندما يُنْصَح الإنسان بعدم مصاحبة الكذوب، فمرمى الإمام من ذلك أن يحاصر الصفات المنافية للحقيقة الإنسانيّة، ويقيم الموانع الحصينة ضدّ المتّصفين بها؛ تفادياً لشرورهم، وحفظاً للنقاء والكمال الإنسانيّ من أن يُخدَش. وبشكل ضمني يغدو العمل من أجل إسقاط البنية الفاسدة في المجتمع، أمراً من صميم الرؤية الثوريّة المُراد ترسيخها ثقافةً أصيلةً متأصّلةً في وعي الإنسان.

إنّ الفرد مُطَالب بتجنّب كلّ المُوبقات التي تشكّل مساساً بالآداب العامّة. فالمجتمع الثوريّ يقوم على الصفاء بين أبناء الجماعة البشريّة التي تؤلّفه، يحترم فيها البعضُ بعضاً، وتُحفظ الأسرارُ والأماناتُ والحقوق بجميع أنواعها؛ ما يسمح بوجود مجتمع قائم على العدالة. وهو ما يشكّل تجسيداً عمليّاً للمجتمع الثوريّ، الذي تُصان فيه الكرامة الإنسانيّة؛ بما هي غايات أصيلة في كلّ نهضة اجتماعيّة[٣]:

ودعِ الكذوبَ فلا يكنْ لك صاحباً ... إنّ الكذوبَ لَبئْسَ خِلاً يُصْحَبُ
والسرَّ فاكتمْه ولا تَنطق به ... فهو الأسيرُ لَديكَ إذ لا ينشبُ
أدِّ الأمانةَ، والخيانةَ فاجتنبْ ... واعدلْ ولا تَظلمْ يطيبُ المكسَبُ

ولخطورة الظلم على الفرد وعلى المجتمع، يصادفنا النهي عنه، والتخويف من مغبّته على الظالم نفسه، وعلى الآخرين[٤]:

لا تظلمنَّ إذا ما كنْتَ مقتدراً ... فالظُّلْمُ مرتعُه يُفْضي إلى النَّدمِ
تَنامُ عينُك والمَظلومُ منْتبهٌ ... يَدعو عليكَ وعَينُ اللهِ لمْ تَنَمِ

(١) الآصفي، الولاء والبراءة، م.س، ص٦٦.
(٢) م.ن، ص٦٧.
(٣) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص٥١.
(٤) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص١٣٦.

فإذا كفّ الفرد نفسه عن الظلم بكلّ أشكاله؛ بدءاً مِن ظلم المرء نفسه؛ بتفريطه في حقوقها الإنسانيّة الفطريّة، وصولاً إلى ظلم الآخرين؛ مادّيّاً أو معنويّاً؛ فهو آنئذ ينخرط حتماً في بناء الجماعة الصالحة، ويساهم في إيجاد البيئة المناسبة لاستنبات الإنسانيّة الحقّة.

ومن يقرأ هذا التوصيات المباشرة يُدرك أنّ مبادئ الإعداد الروحيّ، وغايات السير بالإنسان نحو الكمال والطُهر، ظلّت تشكّل أهمّ سِمَة من سمات الأدب الهاشميّ. فالنهوض في مواجهة الانحراف؛ بما هو السبب الرئيس لكلّ تحرّك شعبيّ، وبما هو أبرز ملمح واسم للاستبداد، يقتضي الأهليّة الكافيّة لدى الأفراد من التشبّع بـ«أسس الخير والاستقامة والرقيّ المادّيّ والأدبـيّ، وفق الصيغة التي يرسمها القرآن الكريم وتدعو لها السنّة النبويّة المطهّرة»[١]. كلّ ذلك من أجل ضمان تحقيق ما يُعبّر عنه بـ«هدفيّة بناء المجتمع الأنموذجي»[٢].

وحيث إنّ منظور الهاشميّين للتغييرَين الاجتماعيّ والسياسيّ، قائم على الاعتقاد بالإسلام شريعةً إلهيةً، ووحياً ربّانيّاً؛ فإنّ العناصر المُعتَمَدَة لتأهيل الفرد؛ كي يكون صالحاً لهذا التغيير، لا تخرج عن كونها تفصيلات مستمدّة من الرؤية الدينيّة نفسها، إذ يتّخذ «**كلّ موضوع يتعلّق بالحياة الإنسانيّة صفة ذاتيّة في الحياة الإنسانيّة: إمّا أن يكون خيراً ونافعاً بذاته ويحقّق وجوده مصلحة، وإمّا أن يكون شرّاً وضرراً بذاته، يجرّ وجوده مفسدة**»[٣]. فنحن أمام دروس ترشيديّة إصلاحيّة، تتوجّه بشكل مباشر إلى الفرد، بوصفه أساس أيّ عمل نهضوي ممكن. من قصيدة مطولة منسوبة للإمام علي[٤]:

ولا تحسدْ على المعروف قوماً وكُنْ منهُم تنلْ دَارَ السَّلام

(١) مجموعة من المؤلّفين: الفكر الإسلامي(سلسلة مفاهيم إسلامية)، م.س، ص١٠٨.
(٢) دروس من نهج البلاغة، لجنة التأليف في مؤسّسة نهج البلاغة، ترجمة عبد الكريم محمود، ط١، طهران، منظّمة الإعلام الإسلامي، ١٤١٤هـ.ق/ ١٩٩٤م، ص١٤.
(٣) مجموعة من المؤلّفين: الفكر الإسلامي(سلسلة مفاهيم إسلامية)، م.س، ص٨١.
(٤) ديوان علي بن أبي طالب، م.س، ص١٣٦.

وثِقْ بالله ربِّكَ ذي المعالي ... وذي الآلاءِ والنِّعَمِ الجسام
وكُنْ للعلم ذا طلبٍ وبحثٍ ... وناقشْ في الحلال وفي الحرام
وبالعوراءِ لا تنطقْ ولكنْ ... بما يرضي الإلهَ من الكلام
وإنْ خانَك الصديقُ فلا تخنْه ... ودُمْ بالحفظِ منهُ وبالذِّمام
ولا تَحملْ على الإخوان ضِغناً ... وخُذْ بالصَّفْحِ تنجُ منَ الآثام

فكلّ هذه الأمراض الاجتماعيّة التي تنجم عن سوء التخلّق؛ من قبيل: الحسد، والجهل، واتّباع الباطل، والخيانة، والحقد، تساهم في تفتيت التماسك الاجتماعيّ، وتهدّد الحصانة اللازمة في كلّ مجتمع قويّ. لذا، يقدِّم الإمام جملة من التوصيات؛ أوامرَ ونواهي، ذات وظيفة وعظيّة إرشاديّة؛ حفظاً للبنية الاجتماعيّة المتماسكة، وضماناً للتحصين الاجتماعيّ الكافي ضدّ كلّ مظاهر الانهيار والضعف. فالإنسان، بحسب هذه الرؤية الإصلاحيّة، معنيّ بالسير نحو كماله المعنويّ؛ بما يتلاءم وعلوّ الروح، التي هي أناه الفوقيّ، وأساس حبّه الفطريّ للأخلاق والكمالات[1]، ما يجعل الفرد نقطة انطلاق نحو مجتمع متماسك وفعّال ومنتج لا يفرِّط في حقوقه، ولا يقبل بالتنازل عن كرامته الإنسانيّة بأيّ وجه، وتلك غايات المجتمع الثوري.

٢. غارات الخطابة على ساحة الانحراف:

لقد كانت الخطابة أبرز واجهة أدبيّة اعتمدها الهاشميّون لنشر الأفكار التثويريّة. بل إنّهم اتّخذوها بمثابة ساحة حربيّة أعلنوا من خلالها الحرب ضدّ كلّ مظاهر الانحراف والفساد؛ فرديّاً واجتماعيّاً. يقول محمد عبده في تقديمه لشرح كتاب نهج البلاغة: «فكان يخيَّل لي في كلّ مقام أنّ حروباً شبَّت، وغارات شُنَّت، وأنّ للبلاغة دولةً، وللفصاحة صولةً، ...وأنّ حجافل الخطابة وكتائبَ الذّرابة في عقود النظام وصفوف الانتظام، تنافحُ بالصفيح الأبلج، والقويم الأملج، ...فتفُلُّ من دعارة الوساوس وتصيب

(١) مطهّريّ، مرتضى: ثبات الأخلاق، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار المحجة البيضاء؛ دار الرسول الأكرمﷺ، ١٤١٤هـ.ق/ ١٩٩٣م، ص٨٦.

مقاتل الخوَانس، فما أنا إلا والحقّ منتصر، والباطل منكسر، ومرْج الشكّ في خمود، وهـرْج الريب في ركـود»[١]. وهذا قول يبيّن مدى أهمّيّة دور الخطابة في النهج التغييريّ للإمام علي، والأمّة من بني هاشم عموماً. فقد جاءت خطبهم عموماً، موسومة بنزعة تثويريّة تغييريّة واضحة؛ بهدف بناء المجتمع السليم والقوي، وبهدف إيجاد الإنسان الكامل والفاعل في بيئته ومحيطه. فعبر كلّ مقطع من مقاطع أيّ من خطباء الأسرة الهاشميّة نجده «ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمّة، يعرِّفهم مواقع الصواب، ويبصرِّهم مواضع الارتياب، ويحذِّرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم إلى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصّات الرئاسة، ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير»[٢].

وإذا كان المقام لا يسمح بجرد المنزع التثويريّ التغييري في كلّ الخطب؛ فإنّ انتقاء مقاطع بعينها يمكنه أن يبدو دليلاً على أهمّيّة هذا النمط القوليّ، ودوره في الإجابة عن سؤال سُبُل إصلاح المجتمع، وخلق الحالة الأنموذجيّة التكامليّة للاجتماع البشري. في مقطع من خطبة: «لاَ تَتْرُكوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر؛ فيوَلَّى عليكم شرارُكم، ثمّ تدْعون فلا يُستجَاب لكم»[٣]. يوجد توجيه مباشر ودعوة صريحة إلى إيقاظ روح الرقابة العامّة لأفراد الشعب، والتحسيس بعدم الإخلال بمسؤوليّة الانخراط في مسيرة الإصلاح من أيّ موقع كان.

إنّ أفضل القوانين وأمضى الأساليب المقترحة لتغيير المجتمع تظلّ عاجزة تماماً عن إعطاء النتائج الإيجابيّة والخروج إلى حيّز التطبيق العمليّ؛ ما لم تُدَعَّم بالمساهمة الفعليّة للأفراد أنفسهم. ويبيّن الخطيب أنّ للالتزام بقضيّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نتائج مهمّة بالنسبة إلى الحياة الاجتماعيّة: «**فرضَ الله.. الأمرَ بالمعروف؛ مصلحةً**

(١) الموسوي، الحسين (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح محمد عبده، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ص١٠.

(٢) م.ن، ص١٠.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق وتنسيق علي أنصاريان، م.س، ص٤٢٩.

للعوام، والنهيَ عن المنكر؛ ردعاً للسُّفهاء»[١].

فهي مصلحة مشتركة، تعود بالفائدة العميمة على الفئات الشعبيّة، بتحصيل الحقوق واكتسابها. ومن جهة أخرى، فإنّ في ذلك نفعاً للظالمين، وردعاً لهم عن التمادي في السفاهة، التي فيها هلاكهم قبل غيرهم.

ولعلّ من شأن مبدأ التناصح المتبادل هذا، أن يجعل العلاقة بين الشعب والجهاز الحاكم، قائمة على المحاسبة والمتابعة؛ تحقيقاً للمصلحة العامّة المشتركة. وهذا يستتبع الاحتكام إلى منظومة حقوقيّة مشتركة، تجعل كلّ طرف مسؤولاً من جانبه ومعنيّاً بتعهّد الطرف الآخر: «**فَلَيْستْ تَصلُحُ الرَّعيةُ؛ إلا بِصلاحِ الوُلاة، ولا تَصلُحُ الوُلاةُ؛ إلا باستقامَة الرَّعية**»[٢]. وينتج عن ذلك؛ وجود مجتمع آمن ومستقرّ، يكون أنموذجاً عن المجتمع الإنسانيّ الكريم والحيّ، الذي تُحترَم فيه الحقوق، وتُصَان من طرف الجميع: «**فَإذا أَدَّتْ الرَّعيةُ إلى الوَالي حَقَّهُ، وأَدَّى إلَيْها حَقَّها، عَزَّ الحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهجُ الدِّين، واعْتَدَلَتْ مَعالمُ العدْل، وجَرتْ على أَذلالها السُّنَن. فصَلَحَ بذلك الزمانُ، وطُمع في بقاءِ الدولة، ويَئِسَتْ مَطامعُ الأَعْداء**»[٣].

ومن ثمّة، تكون المسؤوليّة مشتركة في تبادل التناصح بين الجميع؛ من أجل تحقيق الالتزام بمقتضيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو ما يشير إليه مقطع موال من الخطبة نفسها: «**منْ واجبِ حُقوقِ الله على العباد النَّصيحةُ بمَبْلَغِ جُهْدهم، والتعاوُنُ على إقامة الحقِّ بينَهُم، وليسَ امْرُؤٌ وَإنْ عَظُمَتْ في الحقِّ مَنْزلَتُه، وتقدَّمتْ في الدّين فَضيلَتُه بفوْقِ أَنْ يُعانَ على ما حمَّلَه اللهُ منْ حَقِّه، ولا امرُؤٌ وَإنْ صَغَّرَتْهُ النُّفوسُ واقْتحَمَتْهُ العُيونُ بدونِ أنْ يُعينَ على ذَلكَ أَوْ يُعانَ عَلَيْه**»[٤].

فالسمة التثويريّة ماثلة من خلال التوجّه إلى كلّ إنسان، وتحميله

(١) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، م.س، ص٦١١.
(٢) نهج البلاغة، تحقيق وشرح أنصاريان، م.س، ص٢٩٢.
(٣) م.ن.
(٤) نهج البلاغة، تحقيق وشرح أنصاريان، م.س، ص٢٩.

مسؤوليّة المساهمة الفاعلة والبنّاءة، في تعهّد أمر المجتمع، والعمل على إصلاح ما يمكن أن يبدو من انحراف أو زيغ أو ظلم. ولنا في اعتماد الخطيب الاحتجاج بالغيب، وربطه الحقّ بالمسؤوليّة أمام الله؛ إشعاراً بفطرية المسألة وبداهتها وجسامتها من جهة، وفي الوقت نفسه إشعاراً بخطورة تفريط المخلوقين في حقوقهم؛ لأنّهم بتخلّيهم عن التعاون والنهوض؛ بحفظ كلّ الحقوق، يفقدون صفة العبوديّة لله، ويساهمون في السماح للحاكم بالتسلّط والتجبّر على العباد؛ فيكون التفريط في الحقوق طوعاً واختياراً.

٣. الوصيّة في خضم الشأن الاجتماعيّ:

كانت الوصايا والرسائل والكتب واجهة أدبيّة[١] مهمّة في الفعل التثويريّ لدى الهاشميّين، ممثّلة لغة حجاج مهمّة، اعتمدها الأئمّة الهاشميّون في استنهاضهم الناس، «**تجد لها صدى شعبيّاً بعد انتشار مضمونها، وتأثيراً قويّاً على الأنصار والخصوم**»[٢]. فقد عمدوا من خلال وصاياهم إلى أتباعهم وكلّ من يتولاهم، إلى بثّ روح من الوعي بالمسؤوليّة، وروح من احترام الآخرين، والسعي في خدمتهم، وتغيير الأوضاع السلبيّة؛ بما يحقّق الكرامة الإنسانيّة، ويضمن تحقيق الكرامة الإنسانيّة.

في وصية كتبها علي بن أبي طالب إلى أحد ولاته على الأمصار: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الوَالي أَلا يغَيّرَه عَلى رَعِيته فَضْلُ نَالَه، وَلاَ طول خصَّ به، وأَن يَزِيدَه مَا قَسَمَ الله لَه من نِعَمه دنُوّاً من عِباده، وعَطْفاً عَلى إِخْوانه**»[٣].

فيشير هذا المقطع إلى أنّ من يتصدّى للمسؤوليّة في المجتمع

(١) نحيل هنا إلى بحث أكاديمي لعبد الله البهلول؛ الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع الهجري (مقاربة أسلوبيّة حجاجيّة)، ط١، الانتشار العربي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، ٢٠١١م. دافع فيه صاحبه عن الوصية جنساً أدبيّاً قائماً بذاته، وأثبت من خلال تحليل عديد من الوصايا أنّها تتأسّس على حسّ حجاجيّ يروم إحداث التغيير في المتلقّي (المُوصَى) من خلال التأثير فيه وإقناعه ودفعه نحو العمل.

(٢) الخامنئي، قيادة الإمام الصادق، م.س، ص٨٣.

(٣) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، م.س، ص٥١٤.

تتضاعف واجباته تجاه الآخرين، فيكون مُطَالباً بمزيد من الاقتراب من الناس وخدمتهم، بما يملك من إمكانات، وبما يُتَاح له من فُرَص. وفي ذلك استنهاض غير مباشر، يُلزِم كلَّ فرد في المجتمع بعدم القبول بالمسافة الموهومة التي يخلقها بعض المسؤولين بينهم وبين بقيّة أفراد الشعب.

كما أنّها إرشادات ذات بعد اقتصاديّ، تُلزِم الغنيّ المالك المُنعِم بضرورة الالتفات إلى المحتاجين واقتسام اللقمة معهم؛ حفظاً لواجب الأخوّة الإنسانيّة.

وفي وصيّته لابنيه الحسن والحسين اهتمام واضح بأمر الناس، والتفات إلى حاجاتهم ومطالبهم، وتأكيد على حفظ الرابطة الاجتماعيّة بمقوّماتها المتعدّدة: «... **وَكُونَا لِلظَّالِم خَصْماً، وَلِلمَظْلُوم عَوْناً... أُوصِيكُمَا، وجَمِيع وُلْدِي وأَهْلِي ومَنْ بَلَغَه كِتَابِي، بِتَقْوى الله، ونظْم أَمْرِكُم، وصَلاَح ذَات بَيْنِكُم، فإنّي سَمِعتُ جَدّكُما ﷺ يقول: (صَلاَحُ ذَات البَيْن أَفْضَلُ من عَامّة الصَّلاة وَالصِّيام). الله الله في الأَيْتَام فَلاَ تَغبُوا أَفْوَاهَهُم، ولاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُم. والله الله في جِيرَانِكُم، فإنَّهُم وَصِيَّة نَبِيّكُم... وعَلَيْكُم بالتَّوَاصُل والتَّبَاذل، وإِيَاكُم والتَّدَابر والتَّقَاطُع**»[1].

وهي عبارة عن بيانات اجتماعيّة واضحة الدلالة، قد تبدو مباشرة ومختزلة، لكنّها عميقة الأبعاد والمغزى. فهي تساهم في التأسيس لمجتمع لا يحصر مفهوم التعبّد في زوايا المساجد والبيوت، ولا يقصر مفهوم التديّن على الجانب (اللازم) الذي يتوقّف عند ابتغاء الفوز الذاتيّ؛ عبر التهجّد والخلوة في حضرة المعبود، وممارسة الطقوس الفرديّة؛ من صوم وصلاة ودعاء وبوح واعتراف، لكن في غفل عن الواجبات الخارجيّة.

إنّ التديّن الحقّ بحسّ التوصيات - أعلاه - ينبغي أن تجسّده حركة الإنسان في المجتمع، ويصدّقه سلوك الإنسان بين إخوانه. فإعانة المظلوم لاستعادة حقوقه، والوقوف في وجه الظالم لمقارعته وكفّه عن

(١) م. ن، ص٥١١-٥١٢.

التمادي في انتهاك حقوق المستضعفين؛ أمور تقع في مقدّمة الواجبات الدينيّة. كما أنّ سعي الإنسان في سبيل قضاء حوائج الناس، ومساهمته في إيجاد الجماعة المتآلفة، وحرصه على إبقاء روح الجماعة المحصّنة ضدّ أمراض التفرقة البغيضة، والصراعات الداخليّة؛ كلّ ذلك هو من صميم التديّن الحقّ ومن تجلّيات التعبّد. بل إنّ سياق الوصية يجعل الشأن الاجتماعيّ مقدّماً على شؤون التعبّد الفرديّ؛ إذ تهدف الرسالة التثويريّة للموصي إلى تحقيق إقامة مجتمع إنسانيّ موسوم بـ(العَون) و(التَّقوى) و(النّظم) و(الصّلاح)، و(التَّواصل) و(التَّباذل)، وهو ما من شأنه أن يؤسّس لبنية اجتماعيّة متآلفة تحقّق أسمى غايات قد تطمح إليها أيّ ثورة شعبيّة؛ حبّ الخير للآخرين، وإصلاح شؤونهم، ومشاركتهم في آلامهم وأحزانهم[1].

وهي النبرة نفسها التي نلمسها في كلمات الأئمّة جميعهم، فقد توحّدوا في الاهتمام بالشأن العامّ، والتركيز على إصلاح الأمور ذات الصبغة المشتركة في المجتمع، والعناية بما به قوام المجتمع السليم والقوي، المؤسّس على ترسيخ العقيدة في نفوس الناس، وتوجيه اهتمامات الإنسان نحو إصلاح العلاقة الخاصّة بينه وبين الله، منطلقاً من أجل إقامة العلاقات المتميّزة والمتينة بين أفراد المجتمع، ومن ثمّة إمكانيّة الحديث عن فرص النجاح والتميّز في كلّ المجالات والصُعُد. فالإنسان الصالح يبقى هو المحور، وهو قطب الرحى في كلّ ذلك.

إنّ إصلاح شأن المجتمع وتأهيله ومحاولة السير به نحو الكمال الإنساني، كان من أولويّات الأئمّة من آل البيت؛ سواء أكان ذلك من خلال التصدّي المباشر والشخصيّ للشأن الاجتماعيّ، أم عبر التوصيات والدعوات المباشرة؛ ما شكّل تلاقياً بيّناً مع تجلّيات أخرى لأدوار الأئمّة وحركاتهم السياسية. وفي هذا السياق نفهم ما ورد عن الإمام الصادق

(١) دروس من نهج البلاغة، م.س، ص٩٢-٩٣.

من تأكيد واهتمام بالعنصر الأخلاقيّ، ومن إلحاح على ضرورة التميّز السلوكيّ في حياة كلّ فرد يدّعي أنّه من أتباعه، ومن السائرين على خطّ الولاية للأئمّة، إذ يُنقل عن أبي أسامة زيد الشّحام أنّه قال: «**قال لي أبو عبد الله الصادق: اقرأْ على منْ تَرى أَنّهُ يُطيعُني منْهُم ويَأخُذُ بقولي السَّلامَ، وأُوصيكُمْ بتَقْوى الله عزَّ وجلَّ، وَالوَرَع في دينكُم، والاجْتهَاد لله، وصدْق الحَديث، وَأَدَاء الأَمَانَة، وطُول السُّجُود، وحُسْن الجوَار، فَبهَذا جَاء محمّد ﷺ، وأَدُّوا الأَمَانةَ إلى مَن ائْتَمَنكُم عَليْهَا برّاً أو فاجراً، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَأْمُرُ بأَدَاء الخَيْط والمَخيط. صلُوا عَشَائركُمْ، واشْهَدوا جَنَائزَهُم، وعُودُوا مَرْضَاهُم، وأَدّوا حُقُوقَهم؛ فَإنّ الرَّجل منكُم إذاَ وَرَع في دينه وصَدَقَ الحَديثَ وأَدَّى الأَمَانَةَ وحَسَّنَ خُلُقَه مَع النّاس؛ قيلَ هَذا جَعْفَريٌّ، فَيَسُرُّني ذَلكَ ويَدْخُل عَليّ منْه السُّرُور، وقيلَ هَذا أَدَبُ جَعْفَر، وإذاَ كَان على غَير ذلك دَخَل عَليّ بَلاؤُه وعارُه، وقَيل هَذا أَدَب جعفر. والله لَقد حَدّثني أبي أنّ الرّجُل كان يكُون في القَبيلة من شيعَة عَليٍّ فيكون زَيْنَها؛ أَدّاهُم للأَمَانَة، وأَقضَاهُم للحُقوق، وأَصْدَقَهُم للحَديث، إلَيْه وصَايَاهُم ووَدَائعُهم، تُسألُ العَشيرةُ عَنهُ فتَقُول: منْ مثلُ فلانٍ؟! إنّه أَدّانَا للأَمَانَة، وأَصْدقُنَا للحَديث**»[1].

لقد كان الهاشميّون يدركون جيّداً أنّ الوظيفة الأساس - وظيفة الإنسان الأساس في المجتمع - هي المساهمة في تفعيل حياة الإنسان والنهوض بمختلف جوانبها؛ من أجل بناء المجتمع الفاعل والإيجابيّ. لذلك بادروا منذ البداية إلى محاولة لفت أنظار الأتباع إلى الجانب العمليّ من الأخلاق، ومن العبادات الأخرى بشكل عامّ، وصدّ الناس عن الانسياق مع التيارات الانعزالية التي كانت تنتشر بشكل لافت في المجتمع، أيام الدولتين الأمويّة والعباسيّة. بل كانت تجد تشجيعاً من السلطة الحاكمة، التي كانت تعمل ما في وسعها من أجل الترويج لمنظور تدَيُّنيّ يحصر الناس في زوايا التعبّد

(١) العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، ج٨، ص٣٩٨، (الحديث رقم ٢)، على الموقع الإلكتروني: www.almostafaou.com

السلبيّ، ويبعدهم عن الحضور الفاعل في المجتمع، خاصّة أتباع المدرسة الشيعيّة، فقد «كان بنو أميّة وبعدهم العباسيّون، يتطيّرون من حركاتهم وتطلّعاتهم، فجنحت الدولة إلى تحبيذ انزوائهم واعتكافهم؛ اعتقاداً منها أنّ انطواءهم على ذواتهم يمنع الناس من الاتّصال بهم، فيخفت صوتهم، وتُنسَى دعوتهم»[1].

هذه الفكرة التي تلقّفها عديد من المسلمين منذ القرن الثاني الهجريّ، فمالوا إلى الاعتكاف عن الدنيا، والزهد في ملذّاتها، والدعوة إلى الرهبانيّة وترك الدنيا، بمن في ذلك عديد من أتباع العلويين، الذين اندفع العوام منهم في هذا الاتّجاه، وهو اتّجاه الزهد والاعتكاف، خاصّة وأنّ البعض منهم كان يرى في ذلك سبيلاً لاتّقاء شرّ الحكّام وعدائهم للأئمّة وأتباعهم وملاحقتهم لهم. لذا يبدو أنّ الغاية الاجتماعيّة تتصدّر الاهتمامات كلّها في عرف الأئمّة الهاشميّين، ومدار رسالتهم في المجتمع أن يقودوا الأمّة نحو الصلاح والرشاد؛ من أجل بناء مجتمع إنسانيّ أنموذجيّ، تؤسّسه العلاقات الاجتماعيّة المتميّزة، وتربط بين أفراده علاقات من الحبّ والودّ والوئام.

إنّ الإمام الصادق يعلّم أتباعه من خلال هذه التوصيات أنّ المنتسب لخطّ الهاشميّين لا يمكن أن يكون فرداً مُعرِضاً عن المجتمع، ولا يمكن أن يستحقّ الانتساب إلى الإمام أو ادّعاء موالاته؛ إلا إذا كان يحقّق مفهوم الإنسان الاجتماعيّ والمسؤول؛ صدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وصلة العشائر، ومشاركتهم الأفراح والأحزان، ومواساتهم، وعيادتهم في المرض... وهي كلّها خصال تَخْليقِيّة تَخَلُّقيّة يطمح إلى

(١) مجموعة من المؤلّفين، الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، تعريب نور الدين آل علي، ط٣، بيروت، مؤسّسة الفكر الإسلامي، ١٤٢٠هـ.ق/ ١٩٩٩م، ص١٥٥.
والكتاب في أصله مجموعة محاضرات ودراسات علمية قُدِّمت في دورة ماي ١٩٦٨م بجامعة استراسبورغ الفرنسيّة عن (تاريخ الشيعة الإماميّة، وتاريخها العلميّ والحضاريّ)، بمشاركة خمسة وعشرين عالماً ومستشرقاً من جامعات فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وسويسرا وبلجيكا وأمريكا ومن جامعات لبنان وإيران. يُرجَع إلى أسمائهم وصفاتهم ورتبهم العلميّة في المرجع المذكور على الصفحات٢١-٢٣.

سيادتها كلّ مجتمع ثوريّ، وينشد تحقيقها كلّ مصلح اجتماعيّ، في أيّ مجتمع من المجتمعات. فالوصيّة من هذا الجانب النازعة منه إلى تحسيس الفرد بقيمة الفعل الاجتماعيّ، وبأهمّيّة السلوك الخارجيّ، وأسبقيّة التعامل الإيجابيّ مع الآخرين؛ تغدو واجهة تثويّرية بامتياز. فعبرها يساهم الموصيّ في استنهاض الأتباع، والناس عموماً، إلى تجسيد الإنسانيّة المتراحمة التي لا يتنكّر فيها الإنسان لإنسانيّته، ولا يهرب فيها الفرد من واجباته ومسؤوليّاته حيال الآخرين. بل إنّ اللافت في خطاب الوصيّة؛ كونه يقرن التقوى والإيمان وطول السجود بالعمل الخارجي في المجتمع. وهي إشارة واضحة إلى أنّ التديّن يفقد كلّ معناه، ويُفرَغ من محتواه الحقيقيّ؛ إذا اختُزل إلى مجرّد طقوس تعبّديّة فرديّة لا تلزم المرء بالنهوض والعمل الدؤوب من أجل إيجاد المجتمع الكامل. وحينما يعبّر الإمام الصادق عن حقيقة الإنسان التابع لخطّه واصفاً إيّاه بأنّه يُعرَف بين الناس بـ(أدانا للأمانة وأصدقنا للحديث)، فهو لا يلتفت إلى البعد الذاتيّ والشخصيّ المحض من الفرد، وهو جانب على قدر من الأهمّيّة، إلا أنّه ليس معياراً للصلاح ولا للتميّز بين الناس؛ ما لم يقترن بالسلوك الفاعل والإيجابيّ العائد على الآخرين بما يحفظ إنسانيّتهم وكرامتهم. وبهذا تساهم الوصيّة في تحقيق التديّن، وهي تقوم على القرن بين الفرديّ والاجتماعيّ؛ فـ«الإسلام دين فرديّ اجتماعيّ، وهو في اجتماعيّته فرديّ أيضاً، ينظر في سعادة الفرد؛ كما ينظر في سعادة الأمّة، ويسعى لتهذيب الشخص؛ كما يسعى لتنظيم المجتمع، وصلاح الأمّة مشروط بصلاح الأفراد... وسعادة الأفراد شرط لسعادة الأمّة»[1]. فنلاحظ نزوع الموصي الحازم نحو مواجهة فكرة العزلة عن المجتمع، ووقوفه في وجه انتشار حياة الرهبانيّة التي كانت قد أصبحت ثقافة ملصقة بالتديّن خلال عصره. ومن ثمّة فالوصيّة بشكل غير

(١) زين الدين، محمد أمين: الأخلاق عند الإمام الصادق، لاط، طهران، رابطة الثقافة والعلاقات الاجتماعية، ١٤١٧هـ.ق/ ١٩٩٧م، ص١٢-١٣.

مباشر تحذير ونهي عن العزلة وبيان لخطورة ترك الحياة الاجتماعيّة والاستهانة بأمور تحصيل الناس، بدعوى الاعتكاف والتفرغ لعبادات من قبيل الصلاة أو الصوم أو الذِكْر. ولقد كان دور الإمام الصادق واضحاً في هذا الأمر؛ لأنّه عاصر أكثر المراحل التاريخيّة التي عرفت تأثّر بعض المسلمين بمظاهر الرهبانيّة والتنسّك، الوافدة على المجتمع الإسلامي جرّاء انتشار أتباع كثير من المذاهب والعادات المسيحيّة؛ كالأرثوذكسية، والكاثوليكية، وغيرهما، والتشبّه بها في اعتزال المجتمع والأسرة. فكان كثيراً ما يردد: (لا رهبانيّة في الإسلام)[١]. ولعلّ المقطع أعلاه من الوصية مساهمة مبكرة، في محاربة أيّ شكل من أشكال الترهبن. ومساهمة صريحة في دحض دعاوى السلطة السياسية التي كثيراً ما كانت ولا تزال[٢]، تستغل تفرّغ الناس للتعبّد السلبيّ وتشجّعهم على ممارسة الرهبنة التديّنية؛ لضمان بقائها واستمراريّتها.

٤. الدعاء من محراب التهجّد إلى معركة الكدح:

اعتمد الهاشميّون الدعاء[٣] بوابةً مهمّة لبثّ روح التوعية والتغيير في المجتمع، فهم «حتى في الدعاء يضعون الواجبات الاجتماعيّة، التي عليهم، نصب أعينهم»[٤]. وقد ظلّت الغاية الاجتماعيّة تتصدّر مجمل اهتماماتهم ومدار رسالتهم في المجتمع؛ أن يقودوا الأمّة نحو الصلاح

(١) مجموعة من المؤلّفين، الإمام الصادق كما عرفه الغرب، م.س، ص١٥٥.

(٢) يسهل أن يلاحظ المتتبّع استمراريّة ظاهرة تشجيع الرهبنة والتعبّد السلبيّ من لدن عديد من الأنظمة الحاكمة المتسلّطة على رقاب الشعوب العربيّة. ففي مواطن كثيرة يتمّ تشجيع مدارس التصوّف، وتحفيز الناس للانضمام إلى هذه الفرقة أو تلك، وتسويق ثقافة الانزواء إلى داخل الزوايا والأضرحة؛ لممارسة الطقوس والشعائر بين الجدران. وفي الوقت نفسه يتمّ تشجيع ثقافة الانحراف والانحلال الأخلاقيّ، ويتمّ الترويج لكلّ الموبقات غير المتناسبة مع ادّعاء هؤلاء الغيرة على الدين أو الرغبة في تخليق الناس عبر تشجيع الترهبن. بل إنّ ما يبدو جليّاً أنّها استراتيجية مقنعة لإفراغ التديّن من محتواه العمليّ السلوكيّ، وإبعاد الناس عن الشأن السياسيّ، وتلهيتهم عن القيام بالدور المطلوب في مواجهة التسلّط السياسيّ.

(٣) في مقال؛ الخطاب الدعائيّ والشرعيّة التجنيسيّة، دافعت عن تجلّيّات الأدبيّة في الدعاء، وعن شرعيّة انتساب الدعاء إلى الأدب من حيث قيمته التعبيريّة والتأثيريّة، في سياق البلاغة الرحبة وفي ارتباطها بنظريّة الأجناس الأدبية... انظر مجلة الرافد، العدد١٥٩، ذو الحجة١٤٣١هـ.ق/ نوفمبر٢٠١٠، ص١٣٨-١٤٤.

(٤) شريعتي، الدعاء، م.س، ص٥١.

والرشاد، واضعين أنفسهم في موقع القدوة لغيرهم، وتقديم الصورة المُثلى للحالة الفكريّة الإسلاميّة؛ عبر تصدّيهم لتمثيل «المرجعيّة الفكريّة والمرجعيّة في العمل القياديّ الاجتماعيّ... لملء الفراغات التي قد تواجهها ذهنيّة المسلمين، وتقديم المفهوم المناسب ووجهة النظر الإسلاميّة في ما يستجدّ من قضايا الفكر والحياة»[١]. وذلك من أجل بناء مجتمع إنسانيّ أنموذجيّ، تؤسّسه العلاقات الاجتماعيّة المتميّزة، وتربط بين أفراده علاقات من الحبّ والودّ والوئام.

إنّ الإمام الصادق يعلِّم أتباعه من خلال هذه التوصيات أنّ المنتسب لخطّ الهاشميّين لا يمكن أن يكون فرداً مُعرِضاً عن المجتمع، ولا يمكن أن يستحقّ الانتساب إلى الإمام أو ادّعاء موالاته؛ إلا إذا كان يحقّق مفهوم الإنسان الاجتماعيّ والمسؤول؛ صدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وصلة العشائر، ومشاركتهم الأفراح والأحزان، ومواساتهم، وعيادتهم في المرض... وهي كلّها خصال تَخْليقيّة تَخَلُّقيّة يطمح إلى سيادتها كلّ مجتمع ثوريّ، وينشد تحقيقها كلّ مصلح اجتماعيّ، في أيّ مجتمع من المجتمعات. فالوصيّة من هذا الجانب النازعة منه إلى تحسيس الفرد بقيمة الفعل الاجتماعيّ، وبأهمّيّة السلوك الخارجيّ، وأسبقيّة التعامل الإيجابيّ مع الآخرين؛ تغدو واجهة تثويّرية بامتياز. فعبرها يساهم الموصيّ في استنهاض الأتباع، والناس عموماً، إلى تجسيد الإنسانيّة المتراحمة التي لا يتنكّر فيها الإنسان لإنسانيّته، ولا يهرب فيها الفرد من واجباته ومسؤوليّاته حيال الآخرين. بل إنّ اللافت في خطاب الوصيّة؛ كونه يقرن التقوى والإيمان وطول السجود بالعمل الخارجي في المجتمع. وهي إشارة واضحة إلى أنّ التديّن يفقد كلّ معناه، ويُفرَغ من محتواه الحقيقيّ؛ إذا اختُزل إلى مجرّد طقوس تعبّديّة فرديّة لا تلزم المرء بالنهوض والعمل الدؤوب من أجل إيجاد المجتمع الكامل.

(١) الصدر، محمد باقر: نشأة الشيعة والتشيّع، ص٨٣.

وحينما يعبّر الإمام الصادق عن حقيقة الإنسان التابع لخطّه واصفاً إيّاه بأنّه يُعرَف بين الناس بـ(أدانا للأمانة وأصدقنا للحديث)، فهو لا يلتفت إلى البعد الذاتيّ والشخصيّ المحض من الفرد، وهو جانب على قدر من الأهمّيّة، إلا أنّه ليس معياراً للصلاح ولا للتميّز بين الناس؛ ما لم يقترن بالسلوك الفاعل والإيجابيّ العائد على الآخرين بما يحفظ إنسانيّتهم وكرامتهم. وبهذا تساهم الوصيّة في تحقيق التديّن، وهي تقوم على القرن بين الفرديّ والاجتماعيّ؛ فـ«الإسلام دين فرديّ اجتماعيّ، وهو في اجتماعيّته فرديّ أيضاً، ينظر في سعادة الفرد؛ كما ينظر في سعادة الأمّة، ويسعى لتهذيب الشخص؛ كما يسعى لتنظيم المجتمع، وصلاح الأمّة مشروط بصلاح الأفراد... وسعادة الأفراد شرط لسعادة الأمّة»[1].

فنلاحظ نزوع الموصي الحازم نحو مواجهة فكرة العزلة عن المجتمع، ووقوفه في وجه انتشار حياة الرهبانيّة التي كانت قد أصبحت ثقافة ملصقة بالتديّن خلال عصره. ومن ثمّة فالوصيّة بشكل غير مباشر تحذير ونهي عن العزلة وبيان لخطورة ترك الحياة الاجتماعيّة والاستهانة بأمور تحصيل الناس، بدعوى الاعتكاف والتفرغ لعبادات من قبيل الصلاة أو الصوم أو الذِكر. ولقد كان دور الإمام الصادق واضحاً في هذا الأمر؛ لأنّه عاصر أكثر المراحل التاريخيّة التي عرفت تأثّر بعض المسلمين بمظاهر الرهبانيّة والتنسّك، الوافدة على المجتمع الإسلامي جرّاء انتشار أتباع كثير من المذاهب والعادات المسيحيّة؛ كالأرثوذكسية، والكاثوليكية، وغيرهما، والتشبّه بها في اعتزال المجتمع والأسرة. فكان كثيراً ما يردد: (لا رهبانيّة في الإسلام)[2]. ولعلّ المقطع أعلاه من الوصية مساهمة مبكرة، في محاربة أيّ شكل من أشكال الترهبن. ومساهمة صريحة في

(١) زين الدين، محمد أمين: الأخلاق عند الإمام الصادق، لاط، طهران، رابطة الثقافة والعلاقات الاجتماعية، ١٤١٧هـ.ق/ ١٩٩٧م، ص١٢-١٣.

(٢) مجموعة من المؤلّفين، الإمام الصادق كما عرفه الغرب، م.س، ص١٥٥.

دحض دعاوى السلطة السياسية التي كثيراً ما كانت ولا تزال[١]، تستغل تفرّغ الناس للتعبّد السلبيّ وتشجّعهم على ممارسة الرهبنة التديّنية؛ لضمان بقائها واستمراريّتها.

٤. الدعاء من محراب التهجّد إلى معركة الكدح:

اعتمد الهاشميّون الدعاء[٢] بوابةً مهمّة لبثّ روح التوعية والتغيير في المجتمع، فهم «حتى في الدعاء يضعون الواجبات الاجتماعيّة، التي عليهم، نصب أعينهم»[٣]. وقد ظلّت الغاية الاجتماعيّة تتصدّر مجمل اهتماماتهم ومدار رسالتهم في المجتمع؛ أن يقودوا الأمّة نحو الصلاح والرشاد، واضعين أنفسهم في موقع القدوة لغيرهم، وتقديم الصورة المُثلى للحالة الفكريّة الإسلاميّة؛ عبر تصدّيهم لتمثيل «المرجعيّة الفكريّة والمرجعيّة في العمل القياديّ الاجتماعيّ... لملء الفراغات التي قد تواجهها ذهنيّة المسلمين، وتقديم المفهوم المناسب ووجهة النظر الإسلاميّة في ما يستجدّ من قضايا الفكر والحياة»[٤]. وذلك من أجل بناء مجتمع إنسانيّ أنموذجيّ، تؤسّسه العلاقات الاجتماعيّة المتميّزة، وتربط بين أفراده علاقات من الحبّ والودّ والوئام. فلا غرو أن نجد الخطاب الدعائيّ واجهة إضافيّة من الواجهات التربويّة التي يتصدّى لها الهاشميّون.

(١) يسهل أن يلاحظ المتتبّع استمراريّة ظاهرة تشجيع الرهبنة والتعبّد السلبيّ من لدن عديد من الأنظمة الحاكمة المتسلّطة على رقاب الشعوب العربيّة. ففي مواطن كثيرة يتمّ تشجيع مدارس التصوّف، وتحفيز الناس للانضمام إلى هذه الفرقة أو تلك، وتسويق ثقافة الانزواء إلى داخل الزوايا والأضرحة؛ لممارسة الطقوس والشعائر بين الجدران. وفي الوقت نفسه يتمّ تشجيع ثقافة الانحراف والانحلال الأخلاقيّ، ويتمّ الترويج لكلّ الموبقات غير المتناسبة مع ادّعاء هؤلاء الغيرة على الدين أو الرغبة في تخليق الناس عبر تشجيع الترهبن. بل إنّ ما يبدو جليّاً أنّها استراتيجية مقنعة لإفراغ التديّن من محتواه العمليّ السلوكيّ، وإبعاد الناس عن الشأن السياسيّ، وتلهيتهم عن القيام بالدور المطلوب في مواجهة التسلّط السياسيّ.

(٢) في مقال؛ الخطاب الدعائيّ والشرعيّة التجنيسيّة، دافعت عن تجلّيّات الأدبيّة في الدعاء، وعن شرعيّة انتساب الدعاء إلى الأدب من حيث قيمته التعبيريّة والتأثيريّة، في سياق البلاغة الرحبة وفي ارتباطها بنظريّة الأجناس الأدبية... انظر مجلة الرافد، العدد١٥٩، ذو الحجة١٤٣١هـ.ق/ نوفمبر٢٠١٠، ص١٣٨-١٤٤.

(٣) شريعتي، الدعاء، م.س، ص٥١.

(٤) الصدر، محمد باقر: نشأة الشيعة والتشيّع، ص٨٣.

من دعاء للإمام زين العابدين: «... **ولاَ تفْتنِّي بالاسْتعَانة بغَيرك إذاَ اضْطُررْت، ولاَ بالخُشُوع لسُؤَال غَيرك إذاَ افْتقَرت، وَلاَ بالتَّضَرع إلىَ منْ دُونَك إذاَ رهبْتُ، فَاسْتَحقَّ خذْلاَنَك ومنْعَك وَإعرَاضَك... اللّهم مَن تَهَيَّأَ وتعبّأَ وَأَعَدَّ واسْتَعَدَّ لوفَادة إلى مخْلوق رجَاءَ رفْده وطَلَب نَائله وجَائزَته، فَإلَيْك يَا رَبِّ تعْبيَتي وَاسْتعدَادي رَجَاءَ عَفْوك وطَلَبَ نَائلك وَجَائزَتك**»[٥]. وفي آخر: «**اللّهم إنّي أَخلَصْت بانْقطَاعي إليْك، وصرَفْتُ وَجْهي عَمّن يَحْتَاج إلى رفْدك، وقلَبْتُ مَسأَلتي عَمّن لَم يَسْتغن عَن فَضلك، وَرَأَيْتُ أن طَلَب المحتَاج إلى المحتَاج سفهٌ من رَأْيه، وَضلَّةٌ من عَقْله**»[٦].

فالدعوة صريحة إلى ضرورة التماس الحاجات جميعها من الله، وتجنّب مذلّة المخلوقين؛ لأنّهم جميعهم عيال الله ومحتاجون إليه. والداعي بهذا يرسم طريق العزّة والكرامة للإنسان، ويعلّمه كيف يبتغي العزّة من الله.

كما لا نعدم نصوصاً كثيرة تبدو منها نفحة الارتباط بالآخر والاهتمام بشؤونه وتقديمه على الذات الداعية نفسها. فمن أدعية أيام شهر رمضان: «**اللّهم أَدْخل عَلى أَهْل القُبُور السُرُورَ، اللّهم أَغْن كُل فَقير، اللّهم أَشْبع كُل جَائع، اللّهم اكْس كُل عُرْيان، اللّهم اقْض دَيْنَ كُل مَدين، اللّهم فَرّج عَن كُل مَكْرُوب، اللّهم رُدّ كُل غَريب، اللّهم فُك كُل أَسير، اللّهم أَصْلح كُل فَاسد من أُمُور المُسْلمين اللّهم، اشْف كُل مَريض، اللّهم سُدّ فَقْرَنا بغنَاك، اللّهم غَيّر سُوء حَالنا بحُسن حَالك، اللّهم اقْض عَنَا الدّين، وأَغْنَنا من الفَقْر، إنّك عَلَى كُل شَيْء قَدير**»[٧]. فثمّة تركيز على حاجات الآخرين قبل الحاجات الخاصّة بالداعي نفسه، وتوسيع الأفق

(٥) القمي، عباس: مفاتيح الجنان، ويليه الباقيات الصالحات، تعريب محمد رضا النوريّ النجفيّ، ط٢، بيروت، منشورات دار الثقلين، ١٤١٨هـ.ق/ ١٩٩٨م، ص٦٤.

(٦) الإمام علي بن الحسين(زين العابدين) عليه السلام: الصحيفة السجّاديّة، تحقيق محمد باقر الموحّد الأبطحي، ط٢، بيروت، دار الصفوة، ١٤١٣هـ.ق/ ١٩٩٢م، ص١٣٤.

(٧) القمي، مفاتيح الجنان، م.س، ص٢٣٥.

ليشمل الأموات والأحياء على حدّ سواء، فتصبح الأنا جزءاً من النسيج الاجتماعيّ العامّ، بغضّ النظر عن الانتماء أو الموقف. فالجميع مشمولون بحقّ الاهتمام؛ تحقيقاً لمبدأ الأخـوّة الاجتماعيّة، وتجسيداً لأواصر الترابط المنشودة في المجتمع الإنسانيّ.

بل إنّ في تراث الهاشميّين أدعية بكاملها مخصّصة للآخرين؛ من الجيران والأولياء والأصحاب وغيرهم ممّن يأتي على ذِكْرهم الداعي. ومتى استرسل الداعي في دعائه لنفسه وتوجّه إلى الله في عرض مطالبه؛ تجده لا ينسى الآخرين: «**اللّهم صَلِّ عَلى مُحَمّد وآلِ محَمد وَتوَلَّني في جيرَاني وموَالي وَالعَارفين بحَقِّنَا والمُنَابذين لأَعدَائنَا بأَفْضل وِلايتك... في إرْفَاق ضَعيفهم، وسَدّ خلَّتهم، وعيَادَة مَريضهم، وهدَاية مُسْترشدهم، ومناصَحَة مُستَشيرهم، وتَعهُّد قَادمهم، وكتمَان أَسْرَارهم، وَستر عورَاتهم، وَنُصْرَة مظْلومهم، وحُسْن مُوَاسَاتهم بالمَاعُون والْعَوْد عَليهم بالجدة والإفضَال، وإعطَاء مَا يجب لَهم قَبْل السّؤَال، واجْعَلني اللّهُمَّ أَجزي بالإحسَان مُسيئَهُم، وأُعْرضُ بالتجَاوُز عن ظَالمهم، وأَستعملُ حُسْنَ الظّنِّ في كَافَّتهم، وَأَتَوَلَّى بالبرِّ عَامَّتَهم، وأَغُضُّ بصَري عَنْهم عفَّةً، وأُلينُ جَانبي لَهم تَوَاضُعًا، وأَرِقُّ عَلى أَهْل البَلاَء منهم رَحْمةً، وأُسرُّ لَهم بالغَيب مودّةً، وأُحبُّ بقَاءَ النِّعْمَة عندهم نُصْحًا، وأُوجب لهم مَا أُوجِبُ لحَامَّتي وَأَرْعى لخَاصَّتي**»[1].

لذا فقد رأى عديد من دارسي الدعاء أنّه «يشقّ طريقه إلى الأفراد ليجمع صفوفها، ويوحّد خطوها، ويحدّد هدفها، فإنّ دعوة الأخ لأخيه أجمل هدية يهديها إليه... ينمّي بينهما روح التضحية، ويغرس شجرة الصفاء والإخاء والتعاون بين الجميع»[2].

(١) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، م.س، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) أحمد، محمد محمود؛ الخطيب، موسى: الإنسان والدعاء، ط١، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، ١٤١٧هـ.ق/ ١٩٩٧م، ص٩٩.

وليس أدلّ على هذا الأمر من هذا النصّ، الذي يبدو نصّاً اجتماعيّاً بامتياز. فالداعي لا يُعنَى بمطالبه الخاصّة، ولا يركّز على شؤونه الذاتيّة وهواجسه وطموحاته الفرديّة؛ بقدر ما يجعل من نفسه جزءاً من النسيج الاجتماعيّ، متعالقاً مع الآخرين، ومعانقاً المشترك الإنسانيّ. فغايته أن يبني مجتمعاً إنسانيّاً مثاليّاً، تكون فيه الذات أساساً ومنطلقاً لكلّ الفضائل والقيم الإيجابيّة المثاليّة؛ (الرفق بالضعيف - سد الخلّة - عيادة المريض - الهداية والنصح - التعهّد - كتمان السرّ وستر العورات - نصرة المظلوم - المبادرة نحو مساعدة المحتاج مادّيّاً ومعنويّاً - جزاء المحسن والغضّ عن المخطئ - حسن الظنّ - العفّة - اللين والرقّة والرحمة - إضمار المودّة والحبّ للجميع - تنزيل الجميع منزلة الأهل والخاصّة).

وتعدّ بلاغة التفصيل والإطناب أبرز ملمح بلاغي مؤسّس لجماليّة هذا الدعاء، فكلّ التفصيلات التي يذكرها الداعي مستوعبة في مطلبه الأوّل بأن يتولاه الله أفضل الولاية في المجتمع. بعدها ينتقل إلى تفصيل التولّي، وبيان تجلّياته، وكيفية تحقّقه على أرض الواقع، مركّزاً على كلّ الجوانب الدقيقة والخاصّة التي يرى أنّها كفيلة ببناء المجتمع التكامليّ والمثاليّ.

وتبدو بنية الضمير بدورها مجسّدة البعد الاجتماعيّ المنشود في النصّ، ففيه تقابل بين ضمير المتكلّم المفرد العائد على الداعي، في مقابل ضمير الغائب الجمع، العائد على أفراد المجتمع بكلّ أطيافهم وفئاتهم. ويتحقّق التواصل بين الطرفين عبر جملة من الإجراءات الفرديّة، المساهمة في عمليّات بناء وتشييد مستمرّة للعلاقة الاجتماعيّة المنشودة.

وهذه بحقّ ترجمة أسلوبيّة للدور البارز الذي يتوجّب على الفرد أن ينهض به من جانبه في بناء المجتمع. فلا يمكن تصوّر مجتمع قويّ ومثاليّ ومتماسك؛ إلا إذا أسّسته ذوات خيِّرة، تبادر إلى الفعل الحسن

وتسير في اتّجاه الإصلاح والبناء. هذا السير يترجمه الداعي عبر سلسلة من الإجراءات الأسلوبيّة التي تتّخذ صورتين؛ صورة المصادر (ولاية - إرفاق - سد - عيادة - هداية - مناصحة - تعهّد - كتمان - ستر - نصرة - مواساة - الجدة - الإفضال - إعطاء)، وصورة الأفعال المضارعة (أجزي - أعرض - أستعمل - أتولى - أغض - ألين - أرق - أسرّ - أحب - أوجب). ولعلّ في اختيار الداعي بنية المصدر ما يشير إلى رغبته في تجريد الفعل من الزمن[1]، وجعله حدثاً مطلقاً غير مرتبط بزمن أو مكان. أي أن الذات مطالبة بأن تتجرد للفعل وتبادر إليه في علاقتها بالغير، من دون ارتباط بزمانه أو مكانه. كما أنّ في المصدر ما يُشعر بتأكيد الحدث وإنجازه مطلقاً. وهو بُعدٌ تأثيريّ غايته تعليم الناس قيم التجرّد المطلق لخدمة الإنسانيّة.

وفي انتقال الداعي إلى بنية الفعل المضارع في الجزء الثاني من النصّ، نكتة دلاليّة إقناعيّة مؤدّاها: التجسيد الأسلوبيّ للرغبة في استمراريّة الفعل والثبات عليه؛ إشارة إلى كون خدمة الآخر والتفاني في تعهّده - تُعدّ في عُرف الداعي - رسالة أبديّة ومجرّدة، ترتبط بوجود الإنسان في المجتمع. فما دام المرء موجوداً بين الناس، فوظيفته أن يخدم الآخرين ويبني معهم المجتمع المتكامل.

واللافت أنّ الذات، وهي تنشد بناء العلاقة التواصليّة مع الآخر، لا تشرط ذلك بحالات أو مواقف معيّنة، ففي حديث الداعي عن الآخرين، يكشف عن حالات مختلفة؛ كالمرض، والفقر، والجهل، والحاجة... لكن عندما يتعلّق الأمر بالحديث عن دوره حيال هذه الحالات، فإنّه لا يكشف عن أيّ حالة معيّنة تهمّ ذاته الخاصّة. وهي نكتة دالّة وطريفة، مفادها: أنّ مسؤوليّة الذات في خدمة الآخرين وفي بناء المجتمع مسؤوليّة مطلقة

(١) بالنظر إلى أنّ المصدر يدلّ على الحدث مجرّداً عن الزمان. يقول ابن مالك:
المصدرُ اسمٌ ما سوى الزمانِ مِنْ مَدْلولَيْ الفعلِ كَأَمْنٍ مِنْ أمن
انظر ألفية ابن مالك، م.س، ص٣٨ (باب المفعول المطلق).

وغير مشروطة، وهي بمثابة تكليف حتمي، لا يرتبط بظرف أو موقف معيّن. فحتى في حال افتقدت الذات القدرة المادّيّة على الفعل لعارض ما، كالفقر أو المرض - مثلاً-، فإنّ مبادرات باطنيّة تبقى متاحة؛ كالدعاء والحبّ وغيرهما. ومن ثمّة فالدعاء يكون بحقّ «أفضل صور التضامن الاجتماعيّ والتكافل الإنسانيّ؛ بما يحمل في طيّاته من معاني الحبّ وتنمية أواصر الإخاء بين مختلف بني البشر»[١].

والدعاء وسيلة إبداعيّة أخرى لتعريف الإنسان بواجباته الإنسانيّة تجاه الآخرين: «**اللّهم إنّي أَعتَذرُ إليْك من مَظلُوم ظُلم بحضْرتي فلم أَنصُرْه، ومن معْرُوف أُسدِيَ إليَّ فَلَمْ أَشكُرْه، ومن مُسيء اعتَذرَ إليَّ فلم أَعذُرْه، ومن ذي فَاقة سألَني فلَم أُوثره، ومن حقٍّ ذي حقٍّ لزمني لمؤمن فلم أُوَفِّرْه، ومن عَيب ظهَر لي فلمْ أَسْتُرْه**»[٢].

فنحن أمام صور رائعة من صور المثاليّة والأنموذجيّة في حسن التصرّف تجاه الغير؛ نصرته إن ظُلِم، وشكره على المعروف، والتماس العذر إليه في الخطأ، وقضاء حاجاته، وتأدية الحقوق إليه. وهي في الحقيقة أخلاق تُستمدّ من الأخلاق الرفيعة، التي أقرّها الإسلام وحاول الهاشميّون ترسيخها؛ عبر سلوكاتهم وخطاباتهم المختلفة، فالإنسان في حقيقته مُطَالب بأن يكون تجلّياً من تجلّيات الرحمة الإلهيّة في الأرض. وهو ما نصادفه في المباحث العرفانية وكُتُب السير والسلوك التي تهتمّ بالبحث في صياغة الإنسان الأنموذج، المعبّر عنه بـ(الإنسان الربّانيّ) أو (الإنسان الكامل) أو (الإنسان المعصوم) أو (الإنسان المخلص) أو (الإنسان الواصل)[٣].

(١) أحمد؛ الخطيب، الإنسان والدعاء، م.س، ص ٩٩

(٢) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، م.س، ص ١٦٦.

(٣) يمكن الرجوع لمعاينة مدلولات هذه التوصيفات العرفانية في:

- بحر العلوم، مهدي بن السيد مرتضى الطباطبائي: رسالة السير والسلوك، تعريب عبد الرحيم مبارك، تقديم وشرح محمد الحسين الحسيني الطهراني، لاط، بيروت، دار المحجة البيضاء، وخصوصاً القسم الأوّل (التصوّر العامّ لحقيقة وهدف السلوك إلى الله وبيان منازل عالم الخلوص والعوالم التي تسبقه).

- الخميني، روح الله:

فيكون الدعاء بهذه الوظائف التعليميّة وسيلة للحفاظ على الرسالة أو التجربة الإسلاميّة، وطريقاً لتحصينها ضدّ التردّي إلى الهاوية. وقد كان في مقدّمة التدابير التي اتّخذت للحفاظ على المقياس العقديّ والرساليّ في المجتمع الإسلامي[١]. فهو يوجّه الإنسان من أجل أن يكون فرداً صالحاً في المجتمع، ويسوقه نحو بناء المجتمع الصالح؛ استناداً إلى «تعميق الرسالة فكريّاً وعقديّاً وسياسيّاً في الأمّة نفسها؛ بغية إيجاد تحصين كافٍ في صفوفها؛ لكي يؤثّر هذا التحصين في مناعتها، وفي عدم انهيارها»[٢].

ومن ثمّة يتّخذ الدعاء أبعاداً اجتماعيّة عميقة، تنأى به عن أن يكون مجرّد طقس من طقوس التعبّد الفرديّ، أو مجرّد اختيار من اختيارات القناعة العرفانيّة، المنحصرة في هجر الحياة المادّيّة ومغرياتها الفانية، والانكفاء إلى زوايا الخلوة الخاصّة؛ من أجل المناجاة والتهجّد اللازم للذات في بعدها الفرديّ. يقول محمد باقر الأبطحي في تقديمه لأدعية الإمام زين العابدين في (الصحيفة السجادية): «وحري بنا القول: إنّ أدعيته كانت ذات وجهين غاية في الارتباط والتكامل: وجهاً عباديّاً، وآخر اجتماعيّاً يتّسق مع مسار الحركة الإصلاحيّة التي قادها

⇦ • مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، تعريب وتقديم أحمد الفهري ط٢، بيروت، دار القارئ، ١٤١٧هـ.ق/ ١٩٩٧م، وخصوصاً فصل (انعكاس وجه الحضرة الغيبيّة في المرائي) وفصل (تجلّي الحقيقة الإنسانيّة في صورة الأسماء).

• الآداب المعنويّة للصلاة، تعريب وشرح وتعليق أحمد الفهري، ط١، قم المقدّسة، مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي، لات، الفصل الثاني (في مراتب مقامات أهل السلوك).

•تفسير آية البسملة (محاضرات معرفيّة)، ط٢، بيروت، دار الهادي، ١٤٢٠هـ.ق/ ٢٠٠٠م، (الدرس الثالث).

- الطباطبائي، محمد حسين: عرفان النفس، جمع وتحقيق قاسم الهاشمي، ط١، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٣هـ.ق/ ٢٠٠٢م، وخصوصاً الفصل السابع (الدين وعرفان النفس) والفصل التاسع (أقسام العارفين للنفس).

- الحسيني الطهراني، محمد الحسين: الشمس الساطعة، تعريب عباس نور الدين؛ عبد الرحيم مبارك، ط١، بيروت، دار المحجّة البيضاء، ١٤١٧هـ.ق، فصل (في حقيقة النفس جسمانيّة الحدوث روحانيّة البقاء) وفصل (قوس نزول وصعود الإنسان في مدارج الكمال).

(١) الصدر، تنوع أدوار ووحدة هدف، م.س، ص١٤٤.

(٢) م.ن، ص١٣١.

الإمام في ذلك الظرف الصعب. فاستطاع بقدرته الفائقة المسدّدة أن يمنح أدعيته - إلى جانب روحها التعبّديّة المعطاء - محتوى اجتماعيّاً متعدّد الجوانب؛ بما حملته من مفاهيم خصبة وأفكار نابضة بالحياة»[١].

فحركة الدعاء الرئيسة ليست محدودة إذن في نطاق ما هو فرديّ وخاصّ، بل هي ممتدّة إلى تحقيق هدف اجتماعيّ أوسع، هو كيف يكون الإنسان إنساناً، وهي المرتبة التي تسعى كلّ الحركات الإصلاحيّة التي تقوم في المجتمعات من أجل الوصول بالإنسان إليها. ومن يغفل هذا الجانب الخارجيّ - ولنقل الدلاليّ - للدعاء، فهو غير مدرك لحقيقته لأنّه يسلب منه الجانب الأهمّ. يقول أحد المنظّرين لفكر النهضة في العالم الإسلامي الحديث: «أولئك الذين - وبدافع من توهّماتهم - يحذّرون الناس من الدعاء والذِكْر وما ماثل، لكي يلتصقوا بالدنيا، هؤلاء لا يدرون ما الأمر، لا يعرفون أنّ نفس هذا الدعاء والأذكار هي التي تجعل الإنسان يتعامل مع الدنيا بالصورة المطلوبة. الذين أقاموا العدل في الدنيا هم هؤلاء الأنبياء الذين كانوا أهل الذِكْر والفكر وكلّ شيء، وهم الذين ثاروا ضدّ الظلمة. وهذا نهج الأولياء أيضاً، الإمام الحسين بن علي عليه السلام، قام بتلك الثورة، وهو نفسه الذي ترون دعاءه في يوم عرفة كيف هو»[٢].

ويرى هذا المُصلِح أنّ الدعاء عنصر نهضويّ بامتياز؛ لأنّه يدفع بالإنسان إلى مزيد من المعرفة بواجباته ومسؤوليّاته، ويجعله أكثر اندفاعاً لتحقيق نشاطاته من خلال توجيه الإنسان نحو المبدأ الغيبيّ. وهذا التوجّه نفسه يؤدّي إلى تقليل تعلّق وحبّ الإنسان لنفسه، وهذا لا يمنع الإنسان الحركة والنشاط، كلا، بل على العكس، فهو يولّد حركة ونشاطاً أيضاً لدى الإنسان، ولكن ليس من أجل نفسه، بل إنّه يدرك أنّه

(١) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، م.س، ص١٢ (مقدّمة محمد باقر الأبطحي).
(٢) الخميني، تفسير آية البسملة، م.س، ص٧٤.

يجب أن يتحرّك وينشط من أجل خدمة عباد الله، فهي ذمّة الله[١].

بل إنّ ثمة مِن الدَارسين من رأى في الدعاء العنصر «المائز بين المجتمعات العبثيّة والمجتمعات الهادفة، فالأولى يقتصر تفكيرها على نيل اللذّة ضمن سياق فلسفيّ يرى الحياة عبثيّة وتافهة، والوجود بلا تدبير، والكون يُدار بلا عقل، بينما الثانية تتطلّع نحو السموّ والتكامل الإنسانيّ، وفق فلسفة تنظر إلى الحياة بجدّيّة، ويسعى الفرد فيها إلى ربط نفسه بروح كبيرة شاملة، فالدعاء هنا يُمثّل تجلّي الروح إلى أبعد من اللذّات المادّيّة، وسعياً نحو إحراز الأرفع والأشمل والأكمل»[٢].

وقد سبق أن شخّص المفكّر والباحث الاجتماعيّ علي شريعتي، حيويّة الدعاء وفاعليّته الاجتماعيّة، مبيّناً كونه طريقاً موصلاً ألمَ الفرد بآلام الآخرين، وإشراكه في معاناتهم، وكلّ منغّصات عيشهم. فالدعاء عند شريعتي هو وسيلة لتلقين النفس كيف تظلّ على تطلّع دائم إلى الأهداف والطموحات الإنسانيّة الساميّة[٣].

ومن هنا، يتبيّن لنا مغزى الأهمّيّة القصوى التي يحتلّها الدعاء في نظام الأديان السماويّة بشكل عامّ، وفي الدين الإسلامي بشكل خاصّ، وبشكل أكثر تخصيصاً في المنظومة الفكريّة والعقديّة لمدرسة الهاشميّين. إذ يبدو الدعاء في أدبهم ضرورة من ضروريّات حياة الفرد في المجتمع، وعنصراً مركزيّاً في البناء السليم للمجتمع. فبه قوام الفرد والمجتمع الخاليين من العاهات النفسيّة والروحيّة. وهذا يتناسب مع ما ذهب إليه الدكتور أ. كاريل قائلاً: «إنّ الدعاء أشبه ما يكون بعمليّة التنفّس عند الإنسان، كذلك، فإنّ الدعاء يعتبر عاملاً ضروريّاً لا غنى عنه لتوثيق الوشائج والصلات الطبيعيّة بين الوعي

(١) م. ن، ص٧٥.
(٢) شهاب، أحمد: فضيلة الدعاء عند شريعتي، الموقع الاليكتروني: www.manaar.com
(٣) م.ن.

وبين بيئته الخاصّة. ويعتبر الدعاء أيضاً حيويّة بيولوجيّة مرتبطة ببيئتها. وبتعبير آخر، فإنّ الدعاء يعتبر وظيفة طبيعيّة للروح والجسد في آن واحد، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها أبداً»[١]. ومشيراً إلى ما علّمته سنون من التجارب الطبّيّة ومعاشرة المرضى والحالات الصعبة من أنّ «فقدان الاتّجاه الخلقيّ، وضمور التوجّه الروحانيّ عند غالبيّة أبناء الوطن الفاعلين؛ تدفع بهذا الوطن نحو الانحطاط والسقوط، أو نحو الاستعباد للغريب»[٢]. ومن الطريف الإشارة إلى كون المنظور الوظيفيّ للدعاء من لدن هذا الطبيب الغربيّ، الذي تركّزت أعماله الطبّيّة وتجاربه الميدانيّة، واستنتاجاته عن التأثير العجيب للدعاء في الإنسان غير المسلم، وتحديداً في الإنسان المسيحيّ، يلتقي في جوهره مع منظورات وظيفيّة مشابهة، طرحها عديد من المهتمّين بالدعاء في المنظومة العقديّة الإسلاميّة، حينما رأوا أنّ الدعاء عنصر فعّال في تغيير الإنسان وفي بناء المجتمع الإنسانيّ الفاضل. فبحسب رأي قائد الثورة الإسلامية المعاصرة في إيران، يرجع الفضل في نجاح الثورة إلى الدعاء الذي عمل على صياغة الإنسان الحقيقيّ، وجعله عنصراً فاعلاً وإيجابيّاً في المجتمع، حيث يقول: «الذين يُبعِدون الناس عن الأدعية لا يعرفون ما الدعاء وما طبيعة تأثيره في النفوس، لا يفقهون أنّ جميع هذه الخيرات والبركات هي من قرّاء هذه الأدعية نفسها (الأدعية الواردة عن أئمّة أهل البيت، حتى الذين يقرؤونها بكيفيّة ضعيفة، ويردّدون ذِكْر (الله)، ولو بصورة ببغاويّة، فإنّهم يتأثّرون بها وهم خير من تاركيها»[٣].

لذلك فهو يجعله مركز اهتمامه في دعوته الإصلاحيّة الاستنهاضيّة، ويدعو إلى ضرورة إعطائه الأولويّة في العناية والاهتمام؛ لدوره الفعّال

(١) الخميني، تفسير آية البسملة، م.س، ص٨١.
(٢) م.ن، ص٢٢.
(٣) م.ن، ص٧٧.

في تحسيس الفرد بحقيقة إنسانيّته ودور ذلك في إدراك نظام العالم. ومن ثمّة «لا ينبغي أن يختفي الدعاء من أوساط المجتمع، (و) لا ينبغي لشبابنا أن يعزفوا عن الدعاء، وليس من الصحيح الدعوة للعزوف عن الدعاء تحت شعار الدعوة لعودة القرآن، فهذا يعني تضييع الطريق إلى القرآن»[١].

فبوابة الدعاء - إذن - بوابة اجتماعيّة ووظيفيّة، وعبرها يتمّ تلقين الفرد النشيد الروحيّ الوحيّ بالعمل الإيجابيّ وبالحركة نحو الآخرين[٢]. فلا ينحصر في الجانب اللسانيّ البيانيّ، وإنّما ينهض برسالة خارجيّة متعدّدة الأوجه والتجلّيات. تستوعب السياسيّ والاجتماعيّ وكلّ من يساهم في إقامة المجتمع الذي تُصان فيه إنسانيّة الإنسان.

خاتمة:

حاصل القول - إذن -: إنّ السِمَة المهيمنة في فكر الهاشميّين عموماً، وفي صِيغ القول الأدبيّ التي أنتجها أئمّة أهل البيت عليهم السلام، على تنوّعها وغناها؛ تجلّت في غاية تخليقيّة محضة، محكومة بإرادة صنع الإنسان الذي يكون منشئاً لكماله، ومبتغياً تأمين ملكات الفعل الإيجابيّ في الناس، أو ما يعبّر عنه في مجالات علم الاجتماع التربويّ بـ«**القوّة الصانعة للعادات**»[٣]. فبدا أنّ أدبهم، بتنوّع صِيغه القوليّة، مكتسب قيمته من حيّز وظيفته الإنسانيّة، ومساهمته النوعيّة في التأسيس للبناء الحضاريّ للبشرية؛ عبر استهداف كيان الإنسان وعقله وروحه، أملاً في تغيير السلوك وتوجيه القيم نحو الأفضل.

إنّ محفّزات الارتقاء في سلّم الكمال البشريّ الذي تحفظ فيه القيم،

(١) الخميني، تفسير آية البسملة، م.س، ص٨١.
(٢) عثمان، محمد فتحي: الفكر الإسلاميّ والتطوّر، ط١، تونس، دار البرّاق للنشر، ١٩٩٠م، ص١٨٦.
(٣) بورديو، بيار: العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التربويّ)، ترجمة نظير جاهل، ط١، المغرب - البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤، ص٤٨.

وتؤَمَّن فيه إنسانيّة الإنسان، بدل الخضوع لسلطان المادّيّة القاسية المتوحّشة، والبقاء ضمن سجن عبادة الذات أو الخضوع لنداءات النفس الشريرة، التي تهيمن فتحدّ من القدرة الخلاقة في أيّ مجتمع بشريّ. فهو بحقّ أدب تلطيف الروح، واستعادة القيم النبيلة المفقودة، وتعهّد البشريّة؛ عبر تغذيتها بما يعيد للإنسان إنسانيّته. وغايات ومرامي أعرق الثورات والحركات الإصلاحيّة والتحريريّة في أيّ مجتمع كان.